

وزارة المعارف العمومية

١٤٤٠
مطبعة الأميرية

تفسير جزء تبارك

وهو الجزء التاسع والعشرين من الكتاب الكريم

تأليف العالم الجليل

الشيخ عبد القادر المغربي

نائب رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق وعضو مجمع فؤاد الأول للغة العربية بالقاهرة

قام بتصحيحه و علق عليه بتكليف من وزارة المعارف المصرية

على محمد حسب الله

استاذ العلوم الشرعية المساعد بكلية دار العلوم (جامعة فؤاد الأول بالقاهرة)

جميع الحقوق محفوظة للوزارة

المطبعة الاميرية بالقاهرة

١٣٦٦ هـ - ١٩٤٧ م

سورة المدثر مكية

وهي ست وخمسون آية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنْذِرْ ﴿٢﴾

كلمة [المدثر] في أحوالها الصرفية كالزميل ، وقد تقدّم بيان ذلك ، و [المدثر] مشتق من الدثار ، وهو اسم الثوب الذي يلبس فوق الشعار ، والشعار الثوب الذي يلي شعر الجسد ، ومعنى [المدثر] المتلفف في دثاره ، ويقال في سبب خطاب الملك له صلى الله عليه وسلم بهذا الخطاب ما قيل في سبب خطابه له بـ (يا أيها المزمّل) ، ومن ثم قال بعضهم إن أوائل هذه السورة أول ما أنزل عليه صلى الله عليه وسلم ، وبيان ذلك أن جبريل بعد أن لقنه سورة "اقرأ باسم ربك" و (يا أيها المزمّل قم الليل إلا قليلا) إلى آخر الآيات ، وحصل له صلى الله عليه وسلم من التأثر ما حصل — تخلف عنه الملك زمنا طويلا كي يهدأ روعه ، ويستجم نشاطه ، وليعود صلى الله عليه وسلم إلى ذكرى الوحي ، ويتطلب تلك المناجاة السماوية برغبة وشوق وحنين ، ثم عاد الملك فتجلى له ثانية مخاطبا مشجعا ، فعراه صلى الله عليه وسلم أيضا شيء مما كان عراه في المرة الأولى ، بغناء بيته وقال لأهله : "دثروني دثروني" وبينما هو متدثر جاءه الملك فخاطبه قائلا : (يا أيها المدثر) الذي اشتمل بدثاره داخلا فيه كمن لا يهتم أمر ولا يعنيه شأن (قم) وانشط من مضجعك هذا ، واربا بنفسك أن تنزلها هذه المنزلة من الوحشة والعزلة ، فإن العناية الإلهية قد رشحتك لمقام سام ، ونشر دين عام ، (فأنذر) الناس بذلك الدين ، وخوفهم العاقبة إن هم أعرضوا عنه ، وكذبوا به .

وفعل (أنذر) يتعدى إلى مفعولين ، يقال : "أنذر قومه عذابا شديدا" مثلا ، لكن لما كان الوحي الإلهي إنما يريد منه صلى الله عليه وسلم في أول الأمر أن يقوى على الإنذار ويتصدى له بهمة ونشاط حذف مفعولى أنذر لعدم تعلق الغرض بهما ، وتعلقه بأصل الإنذار إذ كان هو أهم شيء بالنسبة

إليه صلى الله عليه وسلم ما دام لا يعلم بعد من هذا الذى يخاطبه ؟ وما ذا يريد من غشيانه له المرة بعد المرة ؟ وقول القائل إن أوائل هذه السورة أول ما أنزل على النبي صلى الله عليه وسلم يراد به أنه أول ما أنزل عليه بعد سنتين أو أكثر من انقطاع الوحي عنه . وقال بعضهم : لم يكن السبب فى تدره صلى الله عليه وسلم ما لحقه من خطاب الملك ومفاجأة الوحي ، بل كان السبب فيه سوء معاملة قومه له ، وتمكيمهم به عند قيامه بالدعوة ومباشرة أمرها ، فكانوا كلما تصدى لهم أو عرض شيئا من الوحي عليهم أسمعوه ما يكره مما لم يعتد سماعه من أحد . وكانوا يقولون له : يا ساحر ، يا مجنون . وقد ألّفوا عليه يوما سلى جزور ، فنجسوا ثيابه ، ولوثوه بالدم . فاعتم صلى الله عليه وسلم من ذلك ، وشق عليه ، ورجع إلى بيته مكتئبا حزينا . والمرء فى مثل هذه الحالة تطيب له العزلة والتلف بثوب أو قطيفة ، مفكرا فى أمره ، مستطلعا طلع مصيره . وهذا ما كان منه صلى الله عليه وسلم ؛ فإنه لما وصل إلى بيته تذر وجعل يفكر فى عبء الرسالة ، وصعوبة أمر الدعوة ، ولا سيما بين قوم كفر يش فى أعلى ذروة من السؤدد والمجد ونفوذ الكلمة فى العرب . وكان من أخص خلائقهم الكبر والخيلاء والجبروت والتمسك بتقاليد الآباء ، فكيف ينتظر أن يخضعوا للشاب منهم : جعلته أخلاقه الفطرية ، وفضائله النفسية — فى معزل عنهم ، ولم يضمهم به يوما مجلس قار أو نحر أو لحو ، ولم يروه مشاركا لهم فى أعيادهم ، أو السجود لأصنامهم ، أو ممارسة عبادة من عباداتهم ، مما من شأنه أن يؤلف بين القلوب ، ويفرس الميل والثقة فى النفوس .

كان صلى الله عليه وسلم فى مثل ما ذكر من ضروب الهواجس والأفكار ، وإذا الملك يهتف به قائلا : (يا أيها المدثر) المستغرق فى هواجسه وهموم نفسه ، (قم) نشيطا ، ولا تجعل للباس إليك سبيلا ، (فأنذر) قومك وادعهم وخوفهم مهما تجهموك وأسمعوك وأذكوك ، وامنض فى دعوتك قدما من دون أن تباليهم أو تخشى جانبهم ؛ فإن انسلاكك من بين أيديهم ، ونومك فى بيتك منعزلا عنهم — لا يفيدك شيئا ، بل ربما أغراهم بك ، وجرأهم عليك ، وحال بيتك وبين ما أنت بسبيله من نشر التوحيد والإسلام ، وإبطال عبادة الطواغيت والأصنام .

وسواء أقلنا إن تدره عليه السلام وانزواءه عن الناس فى بيته كان تهيئا للوحي ، وتفصيا من ضغطته ، أم تجنبنا لأذى قومه ، وتفكيراً فى مصيره معهم ؛ فإن الوحي السماوى لم يعذره فى أى الأمرين كان ، بل حضه على الهبوب من المضجع ، والتشمير للدعوة ، والجد فى أداء الوظيفة التى اختارته لها العناية الأزلية . وبديهي أن قيامه صلى الله عليه وسلم بدعوة جبارة عتاة إلى خلع

وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾ وَثِيَابَكَ فَطَهِّرْ ﴿٤﴾

دينهم ، وما ورثوه عن أجدادهم — يحتاج إلى سلاح ماض يتحصن به في أثناء المقارعة والمصاولة ؛ فما هذا السلاح ؟ وما هي تلك القلاع الشاهقة ؟ والجيوش المتلاحقة ؟ والأعداء والآلات ؟ المهلكات المبيدات التي استعان بها صلى الله عليه وسلم في الدعوة إلى ربه ، ومحاربة الشرك وحزبه ؟ لم يكن شيء من ذلك كله ، ولم يكن معه مساعد غير الوعد الإلهي ، وغير ما في هذه الآيات الآتية من الوصايا التي أمره ربه أن يتدرع بها ، ويرقّض نفسه عليها ، وهي قوله تعالى :

﴿وَرَبِّكَ فَكَبِّرْ﴾ ، والفاء في (فكبر) لإفادة معنى الشرط فهي فاء الجواب ، كأنه يقول : ومهما قام في وجهك من العقبات فلا تدع تكبير ربك ، وكذا يقال في فاءات الجمل الآتية ، ومعنى (كبر ربك) اختصه بالكبرياء ، وأفرده بالعظمة والمجد ، وارفعه عن أن يكون له شريك من معبودات المشركين وألهتهم . ففي هذا تقرير لعقيدة التوحيد ، وتحرير للعقل من سلطة الأوهام وعبادة الخيال .

هذا هو السلاح الأول ، أما السلاح الثاني فهو تحرير النفس من سوء الأخلاق ، وردى الخصال ، وهو ما أراده تعالى بقوله :

﴿وَتِيَابَكَ فَطَهِّرْ﴾ لا شيء يلزم الإنسان في مختلف حالاته ، ويصاحبه في جميع أدوار حياته ؛ منذ ولادته إلى حين مماته — مثل ثيابه التي ينحجر فيها ، فصارت كأنها جزء من أجزاء ذاته ، وأحد مقومات قرونته ^(١) ، وصاروا إذا وصفوها بوصف كانوا كأنهم وصفوا النفس ذاتها ؛ فيقولون : فلان طاهر الثياب أو نقي الثياب ، وطاهر الجلب والذيل والأردان ، ويريدون وصفه نفسه بالنقاء من المعاييب ومدانس الأخلاق ، ويقولون في ضد ذلك : فلان دنس الثياب ، وخبيث الثياب ، وقال عنترة بن عبس :

فشككت بالرمح الأصم ثيابه ليس الكريم على القنا محرم

وشك الثياب بالرمح ليس مما يمتدح به ، وإنما المقصود شك جسده ، بل قلبه أو نفسه بالرمح ؛ فإن هذا الشك هو الذي يرديه قتيلًا ، وهو الذي يثبت بسالة عنترة وحذقه في فنون

(١) القرونة : النفس .

وَالرَّجَزَ فَأَهْجُرْ ﴿٥﴾

القتال ؛ فمعنى قوله تعالى : (وثيابك فطهر) أو نفسك طهرها من ذم الأفعال ، وسيئ الملكات ؛ فلا تجعل للرجز والسامة وقلة الصبر والخور وضعف الهمة وغير ذلك من أمراض النفس سبيلا إلى نفسك ، فالآية تحضه صلى الله عليه وسلم على تهذيب نفسه ، وتحريرها من قيود الصفات الذميمة ، وهو السلاح الثاني .

أما السلاح الثالث فتحرير الجوارح من المعاصي والذنوب ، وإليه الإشارة بقوله تعالى :

﴿وَالرَّجَزَ فَأَهْجُرْ﴾ الرجز : بكسر الراء وضمها في أصل معناه العذاب ، ثم كثر استعماله في كل ما أوجب العذاب وأدى إليه من المعاصي والآثام ، فهو يقول : اترك كل ما يجر إلى العذاب من تلك المعاصي ، وحرر جوارحك من مقارقتها ؛ فلا تدع سمعك ولا بصرك ولا فمك ولا يدك ولا رجلك ولا عضواً آخر من أعضائك يلم بشيء منها . هذا هو السلاح الثالث من الأسلحة التي يتم بها استعداد صلي الله عليه وسلم للمضي في دعوته ، والنجاح في مهمته ، والظفر بطلبته .

وقد استوعب الوحي في هذه الآيات الثلاث التي لا تتجاوز بضع كلمات — أمهات الفضائل الإنسانية ؛ إذ أن الإنسان ليس سوى عقل ونفس وجسد ، وكل فساد أو صلاح يطرأ عليه أو شر أو خير يصدر منه فإنما مقره هذه الأشياء الثلاثة ، التي هي مقومات وجوده ، وأركان كيانه . فبقدر ما يتوفر له من صلاح العقل بالعقائد الصحيحة ، وصلاح النفس بالآداب الرفيعة ، وصلاح البدن بهجر الآثام الوبيحة — تتوفر له السعادة الكاملة في الدنيا والآخرة . وبقدر ما ينقص من ذلك يخسر من سعادته ، ويدنو من شقاوته .

وليس معنى أمر الله له صلى الله عليه وسلم بتحرير عقله ونفسه وبدنه أنه — وحاشاه — ملوث بشيء من دنس الوثنية أو العيوب أو المعاصي ؛ إذ قد ثبت بالنقل المتواتر الذي لا ريب فيه أنه صلى الله عليه وسلم كان كاملاً في عقيدته ؛ فلم يمارس عبادة جاهلية ، كاملاً في نفسه ؛ فلم يتلوث بخلق ذميم ، كاملاً في جوارحه ؛ فلم يقترب بها معصية قط . ومهما كان أعداؤه المشركون يوجهون إليه المطاعن والشتائم فلم نسمعهم مرة يقولون له : إنك كنت بالأمس شريكاً لنا في عبادة اللات والعزى أو هبل الأعلى ، أو يقولون له : غدرت بفلان ، أو أسأت إلى فلان ، أو استحقت على فلان ، أو يقولون له : أنت الذي كنت تفعل كذا وكذا من

المعاصي والمخازي . لم يكونوا يقولون له شيئا من ذلك . ولو وقع منهم لنقل إلينا كما نقل قولهم له إنه ساحر ومجنون . وقد بسطنا ذلك بسطا شافيا في كتابنا الذي نؤلفه في سيرة حياته صلى الله عليه وسلم . أما قوله تعالى له في سورة الضحى : (ووجدك ضالا فهدى) فمعناه أن ربك وجدك منذ نشأتك في ضلال ، أى حيرة من أمر هداية قومك ، وإيقادهم من دنس الشرك ومعرفة الجاهلية ، إذ كنت واقفا من أمر هدايتهم في مفروق طرق : لا تدرى أى طريق تسلكه إلى هدايتهم ، حتى هداك ربك بالوحي إلى دين الإسلام وتعاليم القرآن ، وأمرك أن تسير بقومك على نوره ، وأتذكك من الحيرة التى كنت فيها . هذا هو معنى الضلال فى الآية .

تقول : وإذا كان الأمر على ما ذكرت من سلامته صلى الله عليه وسلم فى عقله ونفسه وجوارحه وعدم تقصيره — فما معنى الوحي له بتجديد الرب ، وتطهير النفس ، وترك المعاصي ؟ فأقول إن المراد من أمره بما ذكر طلب الدوام منه على ما هو عليه ، وتذكيره بأنه صلى الله عليه وسلم مزود من طهارة عقله ونفسه وجوارحه بما يساعده على أداء وظيفته والقيام بمهمته ، فلا يبتئس ، ولا يحزن ، ولا ييأس ، ولا يكثر من القلق والاهتمام ، وينبذه إلى أن من كان مثله طاهرا من الشوائب ، سليما من المعاييب — لا يخسر ولا يخيب ، بل يكون له من الظهور وحسن العاقبة أوفر نصيب . وهذا كما تقول لابنك — وأنت ترشحه للضرب فى البلاد من أجل كسب مال أو معال ، وقد شعرت منه بشيء من التيب وتوقع الخيبة : ” أقدم يا بنى ولا تخف ، وكن أدبيا فطنا أميناً مطيعاً لربك ، مالكا لإربك ، وفيا لصحبك ، واصبر ترما الله فاعل بك ” تقول له هذا وأنت تعلم أن كل ما أمرته به هو من صفاته وأخلاقه ولا تريد من توجيه الخطاب إليه بذلك الأمر إلا حثه على انتظار النجاح ، وبث الطمأنينة فى نفسه للمستقبل . ومثل هذا قوله تعالى : (إنا أعطيناك الكوثر . فصل لربك وانحر) أى أعطيناك يا محمد الخير الكثير ، فلتكن صلاتك وما تقدمه من القرابين خالصا لله ، ولا تجعل لغيره من المعبودات فيهما نصيبا . والمعنى دم على ما أنت عليه من هذا الاخلاص ، فإنه قضاء للذمة ، ووفاء لحق النعمة . وإلا فإنه صلى الله عليه وسلم لم يسجد لصنم قط ، ولم يذبح لصنم قط وهذا هو معنى قوله تعالى هنا لنبيه : مجد ربك يا محمد ، وطهر نفسك ، واحم جوارحك — إن شاء الله .

وَلَا تَمْنُنْ تَسْتَكْثِرُ ﴿٦﴾ وَلِرَبِّكَ فَاصْبِرْ ﴿٧﴾

ثم إن من الصفات النفسية صفتين هما أشد ما يلزم للقائم بالدعوة أية دعوة كانت : دينية أو دنيوية ، سياسية أو اجتماعية ، فانك الصفتان هما الجود والصبر ، فلا يمكن قط أن ينجح داع في دعوته وهو ممسك شحيح ، كما لا يمكن أن ينجح فيها إذا كان ملولا جزوعا ، مسترخى العزيمة محلول عروة الصبر ، فكم دعوة حق اضمحلت وزالت بسبب شح القائم بها ، أو بسبب ملله وقلة صبره ، وكم دعوة بطل لا أساس لها تدرع صاحبها بالجود والسماح ، واستشعر الصبر والدأب واللاحاح ، فكانت عاقبته الفوز والغلبة والنجاح .

وقل من جدّ في أمر يحاوله واستشعر الصبر إلا فاز بالظفر

اعتبر ما قلناه في الدول التي ظهرت في أزمنة التاريخ المختلفة ، وخاصة التي ظهرت في صدر الاسلام ، فإن الدولة الأموية لم تثبت ويستتب لها سلطان إلا بالبذل والسخاء ، والصبر وانتظار الفرص ، أما الدول الأخرى التي كانت تنافسها وتجري معها في ميدان واحد كالدولة الزيرية مثلا - فإنه لم يضر بها ويقطع عليها الطريق إلى غايتها إلا الشح والضحّ بالمال ، والملل وعدم انتظار الفرص .

إذا تقرر هذا فهمنا السر في تخصيص الله هذين الخلقين بالذكر بعد أن عم في آية (وثيا بك فطهر) التي قلنا إن معناها عليك بكرائم الخصال ، ومحاسن الأخلاق ، ثم خصص فقال : ﴿ ولا تمنن تستكثر . ولربك فاصبر ﴾ ، كأنه يقول : وأخص من بين تلك الأخلاق العطاء بلا استئثار ، والصبر على المكاره والمضار ، فقوله : (ولا تمنن تستكثر) معناه لا تعط وأنت مقدر في نفسك أن ما تعطيه كثير ، بل أعط عطاء من لا يخاف الفقر ، وقدر أن ما تعطيه قليل وإن كان كثيرا في الواقع ونفس الأمر ، يقال : "من الأمير على فلان" إذا أنعم عليه واصطنع عنده يدا .

وقوله (ولربك فاصبر) معناه اصبر على أذى قومك وعرامهم ، وعدم انقيادهم لك ، لأجل ربك وتبليغ رسالاته ، وتلقين وحيه ، فإن في هذا الصبر بلوغ ما تشتهي وتحب من إيمانهم ومساعدتهم إلى تصديقك ، وقد قال تعالى لنبيه في معرض الامتنان عليه بما وهبه من حسن السجايا حتى كانت سببا في تألف العرب ، وحبه لهم ، وانقيادهم إلى دعوته - : (ولو كنت فظا غليظ القلب لانفضوا من حولك) ، فلينه صلى الله عليه وسلم ورفقه ، ومكارم أخلاقه عاقمة ، وسخاؤه وصبره

فَإِذَا نَقَرَ فِي النَّاقُورِ ﴿٨﴾ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ ﴿٩﴾

خاصة — كل ذلك مما أدبه ربه به فكان سببا لظهور دينه ، ونجاح دعوته ، ومن ثم قال صلى الله عليه وسلم : ”أدبني ربي فأحسن تأديبي“ ، أما تأديبه له بالحدود والسخاء فيكفى في التمثيل له إعطاؤه يوما لبعض المؤلفة قلوبهم وأديا مملوء إبلا وشاء ، وأما صبره وثبات قلبه فيكفى في الدلالة عليه ما قاله صلى الله عليه وسلم في جواب عمه أبي طالب مذرغبه في السكوت عن قومه وترك التعرض لهم في دينهم وأنهم يمتعون به في مقابل ذلك بما شاء من زهرة الحياة الدنيا وزينتها : ”والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي ما تركت دعوتهم إلى دين الله“.

قوله ﴿فإذا نقر في الناقور﴾ الفاء للسببية كالفاء الثانية في قوله تعالى : (فأخرج منها فإنا نركبهم) ، أى لأنك رجب ، والمعنى هنا انهض يا محمد لإنذار قومك متدبرا بما أمرتك به ، واصبر على أذاهم ، ولا تبال بهم ؛ فإن أمامهم إن بقوا على كفرهم يوما شديدا الهول عليهم ، و [النقر في الناقور] هو بمعنى النفخ في الصور ، تقول : ”نقرت الرجل“ إذا صوت له بلسانك ، والنقر بالخليل إزعاجها بالصوت حثا لها على المسير ، و [الناقور] فاعول اسم الآلة التي ينقر بها أو عليها فتصوت ، كالحضوم اسم للدواء الذي يؤكل فيكون به الهضم ، فالنقر كما يكون بمعنى الضرب على دف مثلا بحيث يسمع له صوت يكون بمعنى التصويت والنفخ في الشيء فيسمع له صوت .

ويفهم من كلام بعض المفسرين أن النقر غير النفخ ؛ وهو يدل على أن النفخ في الصور والنقر في الناقور كليهما ليس من باب الحقيقة ، بل هو كناية عن إعلان ذلك اليوم ، والمناداة به ، وظهور أمره ، وانكشاف سره . أو هو تمثيل لبعث الخلائق وحشرهم في صعيد واحد بحيث يحسب من رأيهم أن نفخة صور أو نقرة ناقور أهابت بهم وأزعجتهم إلى حضرة ربهم . على أن الشرع إن كلفنا الاعتقاد بالصور والناقور فإنه والحمد لله لم يكلفنا معرفتهما ، ولا كيفية النفخ في الصور ، أو النقر على الناقور — معرفة اكتناه . وذلك رحمة بنا ، وتيسيرا للأمر علينا .

وقوله ﴿فذلك﴾ إشارة إلى الوقت المفهوم من إذا ، أى فذلك الوقت أو اليوم الذي ينقر فيه في الناقور . وقوله : ﴿يوم عسير﴾ خبر لقوله فذلك . وقوله (يومئذ) بدل من (فذلك) الذي قلنا إنه بمعنى فذلك اليوم . وفائدة هذا الإبدال زيادة التقرير والتصوير في الأذهان . وكما أكد في الإبدال من المبتدأ أكد بتقرير الوصف مذ قال ﴿غير يسير﴾ فإنه بمعنى (عسير) . وهذا كما تقول ”أنا محب لك غير مبغض“ فقولك ”غير مبغض“ يورث الكلام فضل تأكيد . بل ربما

عَلَى الْكَافِرِينَ غَيْرُ يَسِيرٍ ﴿١٠﴾ ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴿١١﴾

كانت نكتة التكرير في الآية الإشارة إلى أن عسر ذلك اليوم لا يصحبه يسر كما يصحب عسر الدنيا ؛ فهو عسر مطبق ، وهول مطلق . و﴿على الكافرين﴾ متعلق بعسير ، أو بيسير . والعامل في قوله (فإذا) مضمون جملة الجزاء وهي (فذلك يومئذ يوم عسير) والمعنى : يشتد الهول ويعسر الأمر وقت نقر الناقور .

معنى ﴿ذرني ومن خلقت﴾ دعني وإياه ، وكل أمره إلی ، وثق أني قادر على كفايتك همه . وهو أسلوب بليغ في التهديد ، مثله ما سبق في آية (ذرني والمكذبين أولى النعمة) وآية (فذرني ومن يكذب بهذا الحديث) .

وهذا الذي يقول الله إنه خلقه وسينزل به عقوبته هو الوليد بن المغيرة المخزومي ، أحد عظماء قريش وذوى السؤدد والجاه والسعة فيهم . وقد ذكره تعالى بأياديه عنده في معرض تهديده وتخويفه ؛ ليكون ذلك أدعى إلى الكسر من نفسه ، والغض من خيلائه ؛ فيكف عن بعض شره وإيذائه للنبي صلى الله عليه وسلم . والوحي وإن نزل في سبب خاص ، أو خوطب به واحد من الأشخاص — فإن أسلوبه يبقى عاما متناولا كل من كان كالوليد في معاندة الحق ، والكفر بالله وترك الشكر له على نعمه وسواغ آلائه . ويقول بعض المفسرين إن الوليد هذا هو الذى آذى رسول الله وكاد له ، واضطره أن يأوى إلى بيته ويتدثر بقطيفته منغوما حزينا ؛ فإن صنابير قريش لما برموا برسول الله ، وضائق عليهم الحيل في إسكاته ، وإطفاء نور دعوته — لجئوا إلى الوليد ، فأشار عليهم بأن يلقبوه صلى الله عليه وسلم بالساحر ، ويأمروا عبيدهم وصبيانهم أن ينادوا بذلك في مكة ، فجعلوا ينادون : إن محمدا ساحر . فلما سمع رسول الله ذلك وجهم واشتد عليه الأمر ، ورجع إلى بيته حزينا ، فتدثر بقطيفته ، فترل عليه جبريل يقول : (يأيها المدثر قم فأنذر) ، وقد ذكرنا هذا آنفا مستوفى الشرح والتفسير ، إلى أن قال له ربه هنا : (ذرني) أى دعني يا محمد بعد أن تكون أنت على ما أحببت لك من استجماع الكالات الإنسانية فيك (ومن خلقت) أى وعدوك الوليد الذى خلقته ﴿وحيدا﴾ أى دعني وحدى معه ، ولا تستجش عليه الأعوان والأنصار ، فأنا كافيك وحدى ، وفى الغناء عن كل عون ونصير . فيكون (وحيدا) حالا من مفعول (ذرني) أو المعنى دعني وهذا الذى خلقته وحدى ولم يشركنى في خلق له شريك أو مساعد . وفى ذلك تنبيه للوليد إلى أن من العار عليه أن يقرن بمن تفرد بخلق شريكا

وَجَعَلَتْ لَهُ مَالًا مَّمْدُودًا (١٢) وَبَنِينَ شُهُودًا (١٣)

في العبادة ، أو إيقاظه إلى أن من خلقه وحده قادر على أن يهلكه وحده ولا يعارضه في إهلاكه معارض ؛ فيكون (وحيدا) على الوجهين حالا من فاعل (خلقت) .

أو المعنى : دعني يا محمد وهذا الذي خلقته فكوّنته في بطن أمه وحيدا : لا رفيق له سوى رفيق ولطفي وعنايتي ، ثم ولدته أمه فكان وحيدا فريدا : لا مال له ولا ولد ، ولا حول ولا مدد ، حتى إذا أسبغت عليه الآلاء ، وأمددته بالأموال والأولاد والأخلاء — قام يكفر بي ، ويكذب رسولي ، ويعاند آياتي . فيكون (وحيدا) حالا من مفعول (خلقت) وهو ضمير يعود على من .

وهذا المعنى الأخير يناسب ما بعده من تعداد النعم ، وتذكير الوليد أنه أصبح بها كثيرا وافر العدد ، بعد أن كان وحيدا منقطع المدد . وبعد نزول هذه الآية صار يلقب الوليد بالوحيد تعييرا له ، وتهكما به . وقيل كانوا يلقبونه بالوحيد قبل نزول الآية تكبرا له ، وتنويها بانفراده في الرياسة ، فلما نزلت قلبت المدح إلى قدح ، وحولت التكبير إلى تعيير .

ثم أخذ الكتاب في بيان النعم والأياذي التي كانت لخالقه عليه فقال : ((وجعلت له مالا ممدودا)) أي مبسوطا موسعا . وقريب منه قولهم " فلان صاحب سعة ، وموسع عليه في الرزق " فهو من المّد بمعنى بسط الشيء وتوسيعه ويحتمل أن تكون من المدد والإمداد ، يعني أن ماله كان كالنهر : كلما نفذ منه شيء مّدّ بآخر ، وكلما أنفق نعمة أخلف الله عليه غيرها . وكان للوليد هذا بستان في الطائف لا ينقطع ثمره صيفا ولا شتاء في نعم وأموال أخرى كانت ممتدة بين مكة والطائف . ومن ثم قال بعضهم إن امتداد ماله المفهوم من قوله (ممدودا) هو على حقيقته . ((وبنين شهودا)) ، أي مقيمين معه في بلده ، لا يرحونها ابتغاء للكسب وطلب المعاش ؛ لوجود أعوان يكفونهم مؤونة ذلك ؛ فهم دائما شهود حضور بين يدي أبيهم ، يستأنس بهم ، ولا يتنقص عيشه لفراقهم . ويشبه هذا ما قالوه في بيت حسان رضي الله عنه :

أولاد جفنة حول قبر أبيهم قبر ابن مارية الكريم المفضل

وأنه أراد بقوله " حول قبر أبيهم " أنهم ملوك أعزاء مقيمون بدار مملكتهم : لا يرحون للاكتساب ، ولا ينتجعون كالأعراب .

أو المراد بكونهم (شهودا) أنهم باغوا من الرجولة والكمال والنجابة مبالغاً يشهدون به مع أبيهم الجوامع والمحافل العامة ، فيكونون زينة لأبيهم وجمالاً .

وَمَهَّدَتْ لَهُ تَمْهِيدًا ﴿١٤﴾ ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ ﴿١٥﴾ كَلَّا

وقوله ﴿ومهدت له تمهيدا﴾ من قبيل التعميم بعد التخصيص . فبعد أن ذكر من مظاهر النعم الإلهية المال والبنين ، عاد فلف النعم والخيرات الدنيوية لفا في هذه الجملة فقال : ﴿ومهدت الخ﴾ أى بسطت بين يديه الدنيا بسطا ، ويسرت له تكاليف الحياة ومظاهر الجاه تيسيرا ، بحيث لا يصعب عليه تناول ما شاء منها .

و[التمهيد] فى الأصل أن تجعل الشيء أو الأرض ممهدة مبسطة ، يقال "مهد الأمر" إذا وطأه وسهله وسواه وأصلحه . ثم جعلوا يتجاوزون به عن بسطة المال والجاه . ويقول الكتاب فى ترسلاتهم : "أدام الله تأييدك وتمهيدك" يريدون ما ذكرنا .

وبدل أن يشكر الوليد لربه هذا الإحسان ، ويقابله بالطاعة والإيمان — عكس الأمر وقابله بالجحود والكفران ، فعلم قريشا أن يلقبوا رسوله بالساحر ، وينادوا عليه به فى كل أرجاء مكة ، وقد أشار الوحى إلى ذلك فى الآية الآتية من هذه السورة على لسان الوليد : (إن هذا إلا سحر يؤثر ، إن هذا إلا قول البشر) . وقال عنه فى سورة "ن والقلم" : (إذا تتلى عليه آياتنا قال أساطير الأولين) . وكان الوليد يقول لأولاده ورجال عشيرته : "لئن تبع دين محمد منكم أحد لا أنفعه بشيء أبدا" ، فكانوا بسبب ذلك يمتنعون عن الإسلام . وقد مر عن الوليد هذا خبر طويل فى سورة "ن . والقلم" وقوله تعالى فيه (ولا تطع كل حلاف مهين هزاز) إلى آخر الأوصاف العشرة التى وصفه الوحى بها — ذاك هو شأن الله مع الوليد فى إسداء النعم وموالة الإحسان ، وهذه هى شذشنة الوليد مع ربه فى الجحود والعصيان ، ومقاومة أهل الإيمان . ﴿ثم﴾ إن الوليد بعد ذلك كله لا يستحى من ربه ، ولا يفتن إلى سوء أدبه ، بل هو ﴿يطمع﴾ ويحرص ﴿أن أزيد﴾ له من نعمى ، وأوالى عليه من إحسانى .

يساء إلينا ثم يرجى ودادنا لقد هان من يعطى مودته غصبا

ويروى أن الزيادة التى كان يطمع فيها الوليد لم تكن من جاه الدنيا وخيراتها ، بل من نعم الآخرة وبهاج جناحتها ، فقد كان يقول : "إن كان محمد صادقا فما خلقت الجنة إلا لى" . ﴿كلا !﴾ أى ليرتدع الوليد عن طمعه ، وليكفف من غروره ؛ فليس هو أهلا لما طمع فيه . وقد روى أن الوليد لم يزل بعد نزول هذه الآية فى نقصان وخسار حتى افتقر ومات معدما .

فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ
وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سَحَرٌ يُوْثِرُ ﴿٢٤﴾

وقوله ((قتل... ثم قتل)) يعنى قتله الله ! وهو كفولهم : قاتله الله ! ما أشجعه ! وأخزاه الله !
ما أشعره ! يقول العرب هذا فى معرض التعجب والاستعظام مدحا ، وكأن الأصل فى هذا
الاستعمال أن هذا الشجاع أو الشاعر بلغ فى شجاعته وشعره حدًا يثير الحسد فى نفوس الناس ، فلا
يملكون ألسنتهم من الدعاء عليه بالقتل أو الخزى شأن الحاسد مع محسوده ، ثم شاع هذا الاستعمال
وحرف إلى المدح والتعجب حتى صار يقوله المحب فى محبوبه ، والوالد لولده ، أما هو فى الآية
فتعجب واستعظام مشوبان بالقدح ، ولا مدح فيهما ، أو يقال إن المدح فيهما وارد مورد التهمك
فلا تضر ملاحظته فى الآية .

و [العَبَسَ والبَسَرَ] والكَلَحَ — تقلص عضلات الوجه عند الألم أو الحزن ، أو هم نفسى
ينفعل له المرء ، وجعل بعضهم الكَلَحَ فى الشفاه بحيث تبدو الثنايا ، والعَبَسَ فى تقطيب
الحاجبين ، والبَسَرَ أشد من العَبَسَ .

وقوله ((يُوْثِرُ)) معناه يروى ويتناقل خلفا عن سلف .

قلنا إن الوليد على عتوه ، وشدة عناده — كان لا يملك نفسه عن الإعجاب بالقرآن وفصاحة
آياته ، حتى قال فيه قوله المأثور : ”إن له حللوة ، وإن عليه لطلاوة الخ“ وقال لقريش
يوما : سأبتار لكم — أى سأجرب وأختبر — هذا الرجل الليلة — يعنى محمدا صلى الله عليه وسلم —
بغناء فوجده يصلى ويقرئ ، فرجع إليهم واجما وله النفس ، فقالوا له : ”مه“ قال :
”سمعت قولاً حلوأ أخضر مثراً يأخذ بالقلوب“ . وزار أبا بكر مرة وسأله عن القرآن ، فأسمعه
شيئاً منه بصوته الرقيق الحزين اختلب به لبه ، فخرج إلى قريش فقال : ”يا عجباً لما يقول
ابن أبى كيشة ! فوالله ما هو بشعر ، ولا بسحر ولا بهدى من الجنون ، وإن قوله
لمن كلام الله“ فكانت قريش يسمعون هذا وأشباهه من الوليد فيخامرهم الريب فيه ،
ويقولون : ”والله لئن صبا الوليد لتصبأن قريش“ أى لئن خرج من دينه إلى دين محمد ليفعلن
مثله . ثم راجعوا أبا جهل فى أمره ، وخوفوه العاقبة إن هو أسلم . فأعلن أبو جهل
خطأ قريش وصناديدهم وجوب الاجتماع فى ناديتهم المسمى ”دار الندوة“ ، فشبهه ملأهم
وأشرفهم . وحضر الوليد ، فقال له أبو جهل : ”أى عم ، إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالا“

إِنَّهُ كَانَ لَا يَلْتَنَّا عَنِيدًا ﴿١٦﴾ سَأَرْهَقُهُ صُعُودًا ﴿١٧﴾ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾

(إنه كان لا ياتنا) حجبنا على خلقنا : من كتب ورسل (عنيذا) معاندا لها ، مكابرا فيها .
[عند] عن الطريق مال وعدل ، وعاند فلانا جانبه وفارقه وعارضه بالخلاف والعصيان ، وعاند الحق مجده ورده وهو يعرفه ، فهو معاند وعنيذ . ومما روه من عناد الوليد أنه مر على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يقرأ "حم السجدة" وقيل بل سمعه يقرأ آية (إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى يعظكم لعلكم تذكرون) فرجع وقال لقريش : "والله لقد سمعت أنفا من محمد كلاما : ما هو من كلام الإنسان ولا من كلام الجن : إن له خلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو ولا يعلى . لا جرم أن من عرف من كلام الله مثل ما عرف الوليد وبقى مقيا على تكذيبه له ووصفه بأنه (أساطير الأولين) ، وقوله فيه (إن هذا إلا سحر يؤثر . إن هذا إلا قول البشر) — كان معاندا للآيات ، خليقا بأن يكابد من العذاب أشد الصعوبات . ومن ثم قال تعالى فيه : (سأرهقه صعودا) أى سأكلفه وأحملة عذابا شاقا صعبا عليه ، تضعف عنه قوته كما تضعف قوة من يصعد فى الجبل . و[الصعود] بضم الصاد مصدر صعد ، وافتحها العقبة فى الجبل يصعب على المرء التصعيد فيها . وقد مر فى تفسير قوله تعالى : (عذابا صعبا) أن العرب جعلوا صعود المرتقى الصعب مثلا فى تكليف الأمر الشاق الذى لا يطاق ، فراجع ما قلناه فى سورة الجن .

ذكر فى الآيتين السابقتين أن الوليد شديد العناد لآيات الله ، وأن الله سيتزل به ما لا طاقة له به من العذاب . وكأن سائلا سمع ذلك فسأل : وكيف كانت حاله فى معاندة الآيات حتى استحق العذاب ؟ ثم سأل : وما هو العذاب الذى يرهقه يوم القيامة ؟ فأجيب عن الأول بقوله تعالى : (إنه فكر وقدر الخ) ، وأجيب عن الثانى بقوله بعد ذلك : (سأصلبه سقر ، وما أدراك ما سقر الخ) ، فهذه الآيات التى تليها تفصيل وشرح لما أدبجه فى آتى (إنه كان لا ياتنا عنيذا ، سأرهقه صعودا) وهذا كقوله تعالى فى سورة الإخلاص (الله أحد ، الله الصمد) ، ثم عاد بالبيان على (الله أحد) فقال : (لم يلد ولم يولد) ، وعلى (الله الصمد) فقال : (ولم يكن له كفوا أحد) ، وفى هذا الإسهاب بعد الإيجاز — ما فيه من البلاغة وباهر الإعجاز .

(قَدَّرَ) الأمر فى نفسه هياه ، وأجال فيه رأيه ، ليرزه إلى الناس نافعا كاملا ، ومثله (رؤزه) إذا أعمل الروية فى ترتيبه وتقديره ، و"زوره" بتقديم الزاى إذا أداره فى نفسه وهياه .

قال : ” ولمسه “ قال : ” يعطونك إياه “ فإنك تتعرض لحمد طالبا ما قبله “ يريد أبو جهل أنه يتعرض للنبي في طلب عطية منه . وإنما أراد بهذا القول أن يحيى الوليد ويغضب ، فيتجنب مجالس النبي صلى الله عليه وسلم والصحابة . فقال الوليد : قد علمت قريش أنى أكثرها مالا . قال أبو جهل : فقل إذن فيه قولاً يعلم قومك أنك منكر لما قال ، وأنت كاره له . قال الوليد : فما أقول فيه ؟ قالوا : نريد قولاً نقوله لوفود العرب إذا هم جاءوا الموسم ، وسألونا عن محمد : ما حقيقة أمره ؟ فإذا اختلفنا في الجواب ، وقال بعضنا : هو شاعر ، وقال آخر : كاهن ، وقال ثالث : هو مجنون — استدلوا من اختلافنا على بطلان قولنا من أصله ، فها هموا نتفق على رأى واحد ، ووصف واحد . فقال بعضهم إذ ذاك : تقول كلنا : إنه شاعر . فقال الوليد : لا والله ، ما هو بالشاعر ، وليس أحد أعلم بالشعر منى ، ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن ، أليس قد عرّضت على الشعراء شعرهم ؟ النابغة وعبيد بن الأبرص ، وأمية ابن أبي الصلت ، وغيرهم ؟ فلا يشبه كلامه كلامهم . قال آخر : نسميه الكاهن . فقال الوليد : لا والله ، ما هو بكاهن ، ولا سيما أن الكاهن يصدق تارة ويكذب أخرى ، ومحمد لا يكذب قط . قالوا : هو مجنون . فقال الوليد : المجنون يخيف الناس ، وما يخيف محمد أحدا قط . فلما سمعوا هذا منه سكتوا . فقال له الوليد : فدعنى حتى أفكر فيه . فقال له أبو جهل عند ذلك : والله لا يرضى قومك حتى تقول أنت فيه قولك .

وكان من حق الوليد في هذا الموقف أن يكون ثابت القدم ، جرىء النفس ، قوى الإرادة ، مؤثر للحق على الباطل ، والثواب الباقى على العرض الزائل ، فيعترف بلسانه بما اعترف به في وجدانه ، ويشهد أن القرآن حق ، ودعوى محمد صلى الله عليه وسلم صدق ، لكنه ظلب عليه الجحود والعناد ، فأعلن كفره الصريح في ذلك الناد ، وأشار إلى القوم أنه سيرى لهم بشأن محمد رأيا ينقذهم به من حيرتهم ، ويهديهم إلى صالح أمرهم . فاشترأت إليه عند ذاك الأعناق ، وسمرت في وجهه الجماليق والأحداق .

وقد وصف الوحي عَجَرَ الوليد وُبُجْرَه — في تلك المديدة التي كان يفكر فيها — وصفا استوعب فيه جميع الحالات الجسمية ، والانفعالات النفسية : التي تبدو عادة على كل من كلف تكليف الوليد ، وكان في مثل منصبه . والكلام عنه مسوق للسخرية به ، والتعجيب من غفاته ، وقصور نظره ، على حد ما قيل في مثله :

إن قيل كم نحس ونحس لا رتأى ولظل ليلته يعدّ ويحسب
نحس ونحس ستة أو سبعة قولان قالها الخليل ونعلب

قال تعالى : ﴿إِنَّهُ﴾ أى الوليد حين طلب منه أن يأتى بوصف ينطبق عليه صلى الله عليه وسلم ﴿فَكَرَّ﴾ جعل يقلب وجوه الرأى فى استحضار الأوصاف والألقاب المختلفة، ﴿وَقَدَّرَ﴾ أى وجعل يعمل رويته فى الترتيب والتصنيف بين تلك الألقاب واختيار الأنسب والأليق منها . ثم قاطعه الوحى معجبا من أمره ، ناعيا سوء فعله ، داعيا عليه بما يشبه الاستعظام له والتفخيم ، وهو إنما يريد الاستهزاء به والتبكيك ، فقال : ﴿فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ أى قبحه الله ! ما أشد هوسه فى أمر ذلك التقدير الذى اجتهد أن يقدره ! وفى استنباط اللقب الذى كان يحاول أن يستنبطه ! وبلقاء العرب إذا قالوا قولاً فى أمر ، أو حكموا حكماً على شخص ، وتوقعوا إنكار المخاطب لما قالوا ، أو استبعاده للحكم الذى حكموا — عادوا فكررُوا قولهم مؤكدين مؤيدين ، ويصمّدونه بحرف العطف . [ثم] كأنهم يقولون للذكر : مهما استغرقت من زمن فى الإنكار والرد فإن قولنا أو حكمنا هو الحق الذى لا ريب فيه ، فيقول شاعرهم فى إظهار حبه لمحبيته مثلاً : ” ألا يا اسلمى ثم اسلمى ثم اسلمى “ : توقع فى قوله ” ألا يا اسلمى “ الأول الإنكار عليه ، وأن المنكر سوف يطيل فى لومه وعذله ، فقال : [ثم] أى بعد كل ما تقوله أيها المنكر وتسرده من كلمات اللوم والعذل أعود إلى قولى الأول ، وأدعو لمحبيى بقولى لها ” اسلمى “ ، وهكذا المعنى فى قوله فى المرة الثالثة : ” ثم اسلمى “ .

والكتاب المتزل إنم' يورد خطابه موارد العرب فى خطابهم ، ويتصرف فيه تصرفهم فى مناحى تراكيهم ؛ فهو بعد أن دعا على الوليد لما اقترف من بشاعة التفكير والتقدير عاد فكرر دعاءه عليه مؤكداً قاطعاً على المنكر إنكاره فقال : ﴿ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ .

تركنا الوليد يفكر ويقدر ، ولنرجع إليه لنرى ماذا فعل بعد : قال تعالى : ﴿ثُمَّ نَظَرَ﴾ أى بعد أن فكر وقدر ، وظفر باللقب الذى ظنه فى زعمه أشد انطباقاً على النبي من غيره — رفع بصره إلى القوم المحتشدين فى النادى وجعل يدير نظره فى وجوههم . وكان نظره إليهم أزلاً نظراً هادئاً لا عبوس معه ولا كلوح ، وإنما كل ما أراد — أن يشعرهم بأنه أصاب المحز ، ووقع على الضلالة المنشودة . حتى إذا استجمع القوم ما انتشر من نفوسهم ، ورأهم قد تهيئوا لسماع كلامه — عبس وقطب حاجبيه محاولاً فى ذلك استهواءهم والتأثير فيهم ، كما يفعل المنوم تنويمياً مغنطيسياً فى هذه الأيام . وهذا معنى قوله : ﴿ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ﴾ أى قطب حاجبيه أشد التقطيب متهيئاً للكلام وإعطاء الحكم القطعى .

ولما كان رأيه الذى سيديده للقوم ، والوصف الذى اختاره له صلى الله عليه وسلم — ناشئاً عن محض كبر ، وغمط للحق ، وإعراض عن الإيمان — عبر الكتاب عن رأيه هذا بأنه إدبار

إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴿٢٥﴾

واستكبار ، فقال : ((ثم أدبرواستكبر)) أى ثم أبدى للقوم رأيه فيما يجب أن يلعب به محمد صلى الله عليه وسلم ، فكان ذلك الرأى محض إِدْبَار ، وتول عن الحق واستكبار ، ولم يكن فيه أثر مما شعر به فى قلبه من حلاوة القرآن وطلاوته ، وقوله فيه : "إنه ليس بشعرولا بسحرولا جنون إن هو إلا كلام الله" . عرف كل هذا وأقربه أولا ، حتى إذا شهد النادى واحتف به القوم بحمد وأنكر ، وأدبرواستكبر ، فضل بذلك وأضل ، واستكان لوسوسة الشيطان وزل .

والمدة التى فكر فيها الوليد وقدر ، ثم أبدى هذا الرأى المنكر — لم تكن طويلة حتى يعبر عن كل فترة من فتراتنا ثم التى تفيد البعد والتراخى ، لكن القوم لما كانوا فى شوق شديد إلى معرفة ما كان يقدره الوليد ويدبره من المكاييد كانت المدة بالنسبة إليهم طويلة ، فكان بين تفكيره وتقديره وبين نظره إلى وجوههم وبين عبوسه وبسوره وبين تصريحه بما صرح به أخيرا من القول الدال على إدباره واستكباره — فترات طويلة فى نفوسهم بحيث يصح التعبير عنها ثم .

ثم فسر الوحي تلك الكلمة التى قالها الوليد للقوم ، واللقب الذى عرضه عليهم فكان به مدبرا مستكبرا — بقوله : ((فقال إن هذا)) أى ما هذا القول الذى يقوله محمد ((إلا سحر يؤثر)) أى يروى مثله عن الأشوريين والبابليين ، وقدماء الهنود والمصريين ، أما رأيتوه يفرق به بين الرجل وأهله ، والوالد وولده ، والسيد وعبيده ؟ ؟

ثم أكد رأيه بأنه سحر معروف فى الأمم القديمة وليس من كلام الله بقوله : ((إن هذا)) أى ما هذا القول ((إلا قول البشر)) أى مثل قول البشر الذين عاشوا فى القرون الماضية ، ومارسوا السحر فى الأمم الحالية . وانظر كيف قال : ((فقال إن هذا إلا سحر)) ولم يقل (ثم قال) — لأن قوله تفسير وبيان لإدباره واستكباره المتجليين فى رأيه الفائل ، فكان المقام للفاء المفسرة من دون تراخ . وكذلك قوله : ((إن هذا إلا قول البشر)) أتى به من دون عاطف لكونه بيانا وتوكيدا .

وسياق الآيات فى استنكار قول الوليد واستبشاع رأيه فى اختيار ما اختاره من تلقبيه صلى الله عليه وسلم بالساحر مع ظهور كذب ذلك — يشبه قولهم فى عبارتهم المشهورة "سكت دهرأ ونطق كفرأ" ، فإن الوليد أطال التفكير والتقدير ، وتفنن ما شاء فى التخيل والتصوير ،

سَأَصْلِيهِ سَقَرٌ ﴿٢٦﴾ وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرٌ ﴿٢٧﴾ لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ ﴿٢٨﴾ لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ ﴿٢٩﴾

ثم لم يأت في آخر الأمر إلا بالرأى الفطير ، والقول النافه الحقيق . ومع هذا فإن القوم المحتشدين في النادى هتفوا له مذ سمعوا قوله ، فارتج النادى بهتافهم ، ثم تفرقوا معجبين بقوله ، متعجبين من دهائه ووفور عقله !!!

قوله : (سأصليه سقر) تفصيل لما أدمجه في قوله : (سأرقه صعدوا) كما مررت الإشارة إليه . و (سقر) اسم من أسماء جهنم ، وهو من "سقرته الشمس" إذا لوحته ، وآلمت دماغه بحرما . و "السقرة" شدة وقع الشمس . و "الساقور" الحديدية تحمى ويكوى بها الحمار . و "إصلاؤه سقر" تعريضه لنارها ، وجعله يقاسى حرها ، والضمير يرجع إلى الوليد .

وقوله : (وما أدراك ما سقر !!!) استفهام يراد به التعجب من هول سقر ، وأنه مهما فكر المفكر فيها لا يمكنه أن يعرف من أمرها سوى ما عرفه به الوحى ، ومن ذلك أنها (لا تبقي) على شيء يُلْقَى فيها إلا أهلكتها ، (ولا تذر) أى لا تدع أحدا من الفجار يحاول الهرب منها إلا ناشته واحتجته .

وقوله : (لواحة للبشر) يؤكد لما يفهم من كلمة (سقر) ، وهو تلويح الجسم وتغييره إلى سواد ، فلواحة أى مغيزة للون الجسم : فعالة من "لاحت الشمس" . ويقال فى الأكثر "لوحته الشمس" .

[والبشر] جمع بشرة ، وهى ظاهر جلد الإنسان ، وليس المراد به الناس الذى يكفى بهم آدم فيقال : "آدم أبو البشر" وإن كان هذا المعنى هو المتبادر من اللفظ . فالمعنى أن دار العذاب المسماة سقر تلفح وجوه المذنبين بها ، وتسفع جلودهم ، وتغير لون أبشارهم إلى السواد من شدة ما ينزل بهم من العذاب .

ولعل السرفى قوله (لواحة للبشر) مع قوله قبله (لا تبقي ولا تذر) الإشارة إلى أن أخف حالات العذاب فى سقر لا يطاق ولا يحتمل . ومن يطبق أن يُعرض جسمه على النار فيصلى حرها إلى حد أن تسود بشرته ، وتمجل^(١) من لذعها جلده ؟ لا يطبق هذا أحد ، فكيف به إذا عرض على سقر فى أشد أحوالها ، وأفظع أحوالها ؟ وهو المعبر عنه بقوله (لا تبقي ولا تذر) .

(١) مجلت يده كنصر ورفح : قفطت وقرحت وتكثرت بين جلدها ولحمها ماء .

عليها تسعة عشر ﴿٣٠﴾

وقد فسر بعضهم (لواحة للبشر) بأنها تحرق الجلود حرقاً. وذهب آخرون إلى أن تفسير (لواحة) بمعنى مغيرة ومسودة ومحركة لا يتسق مع قوله قبله (لا تبقى ولا تذر) المفيد أنها تهلكه إهلاكاً وتمحقه محقاً، وقال إن معنى (لواحة) لماعة : يريد أن سقر لشدة فورانها، وانفجار نيرانها، ورميها بشرر كأنه القصر، أو الجمالات الصفر — تلوح وتظهر لأنظار البشر من مسافات بعيدة، ويكون المراد بالبشر في الآية بنى آدم؛ فهي لماعة لهم، بارزة إلى أنظارهم: يرونها من غير استشراف ولا مد أعناق؛ فلواحة فعالة من "لاح البرق" إذا أومض ولمع. ويقولون "لوح إليه بثوبه" إذا رفع الثوب وحركه ليراه من بعد فيقبل عليه، وهذا كما إذا أردت أن تصف بركاناً عظيماً، يقذف نيرانه وحممه بشدة وعنف إلى عنان السماء بحيث يرى من مسافات بعيدة — فتقول مثلاً : "بركان لواح، ترى مقدوفاته من سائر النواح".

ثم ذكر الوحي من صفات تلك الدار أن ﴿عليها تسعة عشر﴾ وهم خزنتها الموكلون بأمرها على ما يعلم الله من حقيقة ذلك وسيره، كما يعلم سبحانه الحكمة في كونهم (تسعة عشر)، لا أقل ولا أكثر. وسيأتى في صريح الوحي أن أولئك الخزنة من جنس الملائكة، ولكن (التسعة عشر) المذكورين هنا هل هم تسعة عشر شخصاً من الخزنة أو صنفاً أو صفاء أو نقيباً أو زعيماً — الله أعلم بجميع ذلك، ولم يكلفنا البحث فيه، بل أشار إلى تعذر معرفته، وأنه مما لا طاقة للخلق بإدراكه مذ قال تعالى : (وما أدراك ما سقر؟) ولا سيما إذا كان المقصود بالخطاب في (ما أدراك؟) صاحب الرسالة عليه الصلاة والسلام، فيكون غيره أولى وأجدر بعدم معرفته. وكل ما علينا اعتقاده هو أن تلك الدار ذات الأحوال المذكورة في الكتاب حق، وأنها ستكون مأوى للفجار، الذين كفروا بالله ومحمدوا الحق في هذه الدار.

ولما ذكر الوحي في صفة النار أن ﴿عليها تسعة عشر﴾ فتح باب الجدل للكافرين المشككين؛ كآبي جهل وأحزابه، فجعلوا يقولون: ما هؤلاء التسعة عشر؟ ولماذا كانوا تسعة عشر ولم يجعلوا عشرين؟ أما لرب محمد أعوان إلا تسعة عشر؟ بل ذهبوا في الاستهزاء بالوحي إلى أبعد من هذا؛ فقال أبو جهل لقريش: "ثكلتكم أمهاتكم. أيعجز كل عشرة منكم أن يبطشوا بواحد من هؤلاء الخزنة التسعة عشر؟" فقال أحدهم — وهو أبو الأشد بن أسيد الجمحي، وكان مشهوراً بالقوة

وَمَا جَعَلْنَا أَصْحَابَ النَّارِ إِلَّا مَلَائِكَةً وَمَا جَعَلْنَا عَدَتَهُمْ إِلَّا فِتْنَةً لِلَّذِينَ كَفَرُوا

والبطش — : "أنا أكفيكم سبعة عشر ؛ فاكفوني أنتم اثنين فقط". وهكذا كانوا يشاغبونهم صلى الله عليه وسلم ويستهنئون بالوحي المنزل عليه ، ويصرفون قلوب العرب عن الاهتمام به ، وأخذ العبرة منه . والنبي صلى الله عليه وسلم ثابت القلب ، مطمئن النفس ، واثق بوعد الله أنه ناصره ومظهر دينه ؛ فكان يجيبهم من دون امتعاض ولا ارتباك بما يأمره ربه أن يقول لهم ، فأتى أبا جهل وأخذ بيده في بطحاء مكة وخوفه قائلاً : (أولى لك فأولى . ثم أولى لك فأولى) أى يوشك أن يحل بك العقاب الإلهي ، فاحذر لنفسك . فأجابه أبو جهل : "والله لا تقدر أنت ولاربك أن تفعلوا بي شيئاً" ثم ما لبث أن أخذه الله بالنكال في وقعة بدر .

وقد نزلت هذه الآيات في صدد الرد عليهم وتوبيخهم على ما كان من استهزائهم ؛ فقال تعالى : ﴿ وما جعلنا أصحاب النار إلا ملائكة ﴾ أى أن خزنة النار ليسوا بشرًا مثلكم أيها الجاحدون ؛ فصاؤلوهم وتقووا عليهم ، إنما هم ملائكة ذوو أيد وقوة فوق قوة البشر ؛ فاسألوا عنها إن شئتم قوم عاد وثمود وأهل سدوم وعموراء ؛ فهم يخبرونكم أنهم لقوا من تلك القوة ما لا قبل لهم به ، فخربت ديارهم ، وغفت آثارهم ، وكذلك هي في جهنم إن حلتتموها تطبق عليكم ، وتأخذ بأكظامكم وتشبعكم عذاباً ونكالاً ، فلا تسألوا عن عدة هذه القوة وأشكالها فليست العبرة بالعدد ، ولا تخطوا الجلد باللعب ، وتصرفوا قلوب الناس عن استماع الوحي والانتفاع بهديه .

ثم عجب الوحي من حال أولئك المكذبين المستهزئين الذين لم يأخذوا من آيات القرآن عبرة وعظة ، ولم يخافوا مما خوفهم به من سقروأهوالها ، وإنما كان مكان العبرة فتنة لهم ، وضلال عن الحق ، واشتغال بما لا فائدة لهم به من ظاهرات القول ؛ فتعلقوا بكلمة (تسعة عشر) ، وتساءلوا عن هذه العدة وسببها وحكمتها : مما لو أريدوا على فهمه وتعقله — وهو من شئون العالم الأخرى! — لعسر عليهم تعقله ، بل لازدادوا إشكالاً ، وأوغلوا بعداً عن التصديق وضلالاً ، وهذا معنى قوله تعالى : ﴿ وما جعلنا عدتهم إلا فتنة للذين كفروا ﴾ .

[عدتهم] أى عدة خزنة سقر في قولنا عنهم إنهم (تسعة عشر) ، و (فتنة) يعنى ضلالاً وميلاً وإعراضاً عن الحق ، وليس المراد أنه تعالى أوحى إلى نبيه بذلك ليفتن الكافرون به ، وإنما كانت نتيجة الوحي بالنسبة إليهم ضلالاً وكفراً بالنظر إلى عنادهم في باطلهم ، وجودهم على ما ورثوه من تقاليد آبائهم ، أما النتيجة والعاقبة بالنسبة إلى غير الكافرين وهم المؤمنون به

لِيَسْتَيْقِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ

عليه الصلاة والسلام ، وإلى أهل الكتاب الذين شتموا رائحة الوحي ولهم عهد بالكتب المنزلة وأساليب الخطاب الإلهي فيها — فإن الفريقين استفادوا من الآيات المذكورة ؛ فالذين أوتوا الكتاب "استيقنوا بها" أى أيقنوا صحتها ؛ ولورود نظائر لها في كتبهم المقدسة ؛ فكم في هذه الكتب من أخبار عن العالم الآخرى ، وعالم الغيب ، وحوادث المستقبل ، أرسل فيها القول إرسالا ، وأودعت من الإغراب في الوصف والإيغال في التمثيل ضروبا وأشكالا .

ويكفى في الاستشهاد على ذلك ما جاء في "رؤى دانيال" من أسفار العهد القديم ، و "رؤيا يوحنا" من أسفار العهد الجديد .

وقد قال المفسرون من علماء أهل الكتاب : "إنه وإن يكن يوجد في سفر دانيال حوادث غير اعتيادية فليس هذا بمستغرب لأنه يعم الكتاب المقدس تقريبا" ، وقالوا في رؤيا يوحنا "إن معناها عويص وهي مشحونة بمسائل محيرة لا يمكن حلها قبل تامة ألف السنة ، بل إن مسألة ألف السنة نفسها من جملة تلك المسائل المحيرة ولا يمكن أن نفهم هذه المسائل قبل وقوعها" .

وقالوا أيضا : إن كل ما جاء في هذين السافرين من قبيل الرمز "وهو أن يشار بكلام حرفي إلى معنى روحى ، والرمز كثير الوقوع في جميع الكتابات الشرقية ولا سيما الكتاب المقدس"

فمثال ما جاء فيه من الرمز بالأعداد إلى معان غيبية أو مستقبلية "حيوانات حزقيال الأربعة التى لكل منها أربعة أوجه وأربعة أجنحة وأربعة جوانب" وملائكة رؤيا حنا "كانت سبعة وفى أيديهن سبع جامات وسبع ضربات" أما عدد أجنحتها "فكان ستمائة أزواج فكانوا بزواج يغطون وجوههم لأنهم غير مستحقين أن ينظروا إلى وجه الرب ، وبزواج يغطون أرجلهم لأنه تعالى أجل من أن ينظر إليهما ، وبزواج يطيرون لقضاء مشيئة إلههم" و "كان للتنين الذى رآه سبعة رموس وسبعة تيجان وعشرة قرون" وهذا كالحىوان فى رؤيا دانيال "فإن له عشرة قرون أيضا" .

فذكر هذه الأعداد من قبيل الرموز والأسرار ، وقد فسروا السر بقولهم "إنه حقيقة روحية لا يصل الإنسان إلى معرفتها بمجرد ذهنه ولا يفهمها تماما فى هذه الدنيا ، وتسمى بعض التعاليم

وَيَزِدَادَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِيمَانًا

أسرار لما فيها من الإبهام والصعوبة على الفهم. قالوا: "ومن الأسرار غير المفهومة ما جاء في رؤيا يوحنا من ذكر الكواكب السبعة ، والمناثر السبعة ، والمرأة المتسربة بالقرصن".

وقالوا أيضا في وصف صعوبة فهم أحوال عالم الغيب: "إنه قد يكون في الفردوس أمور فوق أفكار البشر بحيث لا توجد لغة قادرة على أن تعبر عنها، وإذا كنا نحن معشر البشر في دنيانا هذه لا يمكننا التعبير عن أفكارنا العادية حينما تكون حاسياتنا شديدة الانفعال ، فكم بالحرى إذا كان موضوع الكلام حقائق العالم الأزل ، ووصف الأرواح المجردة عن المادة ، ووصف مختلف أطوارها".

فقد تبين من هذا أن في كتب أهل الكتاب رموزا وأسارا عن شئون عالم الغيب يقصر الفهم دون إدراكها وتعقلها، وأن علماءهم معترفون بوجود هذه الأسرار، وبأن لها معاني صحيحة منها ما يفهمه الراسخون في العلم ومنها ما لا يفهمونه إلا بعد وقوعه في المستقبل أو في العالم الآخرى. فلا بدع إذا لم يستغرب أهل الكتاب في زمن نزول القرآن ما قاله تعالى من أن عدد خزنة سقر تسعة عشر كما استغرب المشركون الأصناميون ذلك. وهذا معنى قوله تعالى: (لستيقن الذين أوتوا الكتاب).

ويحتمل أن يكون المراد من كونهم يستيقنون أنهم يستدلون من مقاومة المشركين له صلى الله عليه وسلم ، وتآلبهم عليه في التكذيب والمشغبة طورا ، والسخرية والاستهزاء تارة أخرى — أنه نبى كآنيائهم ، مذ يرون حاله مع أولئك المشركين ، وصبره على أذاهم ، وثباته في تبليغ أمر ربه كحال أولئك الأنبياء وصبرهم وثباتهم ، فيستيقنون ويصدقون بصحة نبوته .

أما المؤمنون الخالص فإن ورود الوحي بأن خزنة سقر تسعة عشر لا يحبك في نفوسهم أثرا من شبهة سوى ازدياد الإيمان بالله ، والتصديق بوجيه ، وإن خفيت عليهم الحكمة فيه ، ولا سيما حين يرون موافقة أهل الكتاب عليه ، واعترافهم بأن في كتبهم مثله . وهذا معنى قوله تعالى: (ويزداد الذين آمنوا إيمانا).

ويروى أن الصحابة لما سمعوا المشركين يقولون: "لا يعجز كل عشرة منا أن يبطشوا بواحد من أولئك التسعة عشر" قالوا لهم مستهزئين: "ويحكم! أتقاس الملائكة بالحدادين؟"

وَلَا يَرْتَابَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْمُؤْمِنُونَ وَلَيَقُولَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ
مَرَضٌ وَالْكَافِرُونَ مَاذَا أَرَادَ اللَّهُ بِهَذَا مَثَلًا

ومرادهم بالحدادين السجانون الذين يضعون الحديد في أيدي المسجونين . وقد ذهب قولهم هذا مثلاً فيقال : " لا تقاس الملائكة بالحدادين " في التفرقة بين اثنين أحدهما طيب والثاني خبيث .

ثم إن استيقان أهل الكتاب وازدياد المؤمنين إيماناً يفهم منه بالضرورة بل يلزم منه عدم ترتيب الفريقين جميعاً . ومع هذا فقد أكد الوحي استيقان الأولين وازدياد إيمان الآخرين بالتصريح بذلك اللازم أعنى عدم الارتباب ونفيه عن الفريقين معاً فقال : ((ولا يرتاب الذين أوتوا الكتاب والمؤمنون)) أى أنهم يستيقنون ويزدادون إيماناً ولا يرتابون ، كما تقول لآخر : " إني أبغضك ولا يحبك قلبي " فإن إثبات البغض يستلزم نفي الحب . لكن العرب في أساليب مخاطبتهم اعتادوا التصريح بذلك اللازم تأكيداً للكلام ، وتقوية للحكم . على أن في إعادته في الآية تعريضاً بأولئك الكافرين المشاغيين الذين أصبح دأبهم الارتباب بالوحي ، وتشكيك الضعفاء فيه .

وكذلك قوله تعالى : ((وليقول الذين في قلوبهم مرض والكافرون إلخ)) فإن قولهم هذا إنما هو أثر من افتتانهم ، ولأزم من لوازمه ، ولكنه ذكره ليصف من ذلك الافتتان ، ويروى شيئاً من أقوالهم ، وليضيف إلى الكافرين صنفاً منهم ، وهم الذين في قلوبهم مرض ، ويعنى بهم المنافقين ، وفي ذلك من التفنن في التعبير ، وزيادة التقرير والتعير — ما فيه ، كأنه يقول : كان من نتيجة ذكرنا لعدة الخزنة افتتان أولئك الكافرين وضلالهم ، وقولهم — ولا سيما المنافقين منهم — : ((ماذا أراد الله بهذا مثلاً)) .

و [هذا] إشارة إلى "تسعة عشر" في عدة خزنة سقر ، و [المثل] القول السائر في الناس ، المتداول على ألسنتهم ، ولا يكون إلا في أمر ذي شأن وخطر ووصف مستغرب ، فالمشركون الذين سمعوا الوحي يخبر أن خزنة سقر تسعة عشر تعجبوا منه واستغربوه ، وعدّوه في جملة ما يضح أن يسير مثلاً بين الناس فقالوا : (ماذا أراد الله إلخ) أى ماذا أراد بهذا القول الذى هو مثل في الغرابة والبداعة ، فيخوفنا بواسطته من سقر ، وخزنتها التسعة عشر ؟

كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ^ج

قوله ﴿كذلك﴾ إشارة إلى ما ذكر قبل من الأمرين : افتتان الكافرين والمنافقين وارتياهم بالوحي ، واستيقان الكتابيين والمسلمين وازديادهم إيمانا به ، ولا ريب أن الأولين كانوا من فتنهم وارتياهم على ضلال ، وأتت الآخرين كانوا من استيقانهم وزيادة إيمانهم على هدى ، والله تعالى يضل من يشاء من الخلق ويهدي من يشاء منهم : مثل الإضلال والهداية اللذين كانا من نصيب الفريقين المذكورين .

وليس معنى إضلال الله فريقا وهدايته فريقا أنه تعالى يجبر كل فريق منهما على تناول نصيبه من الضلالة والهدى ، ولا أنه تعالى يكرههم على سلوك أى السبلين شاء من سبيل الخير والشر ، كلا ، فإن هذا الإكراه مناف للعدل الإلهي ، بل مناف لحكمة التشريع السماوي ، ولا يلتحم مع نصوص الشريعة المتواترة القطعية في دلالتها على معناها : من أن العبد له إرادة واختيار هما مناط التكليف والمؤاخذه ، وكذلك كان الصحابة والسلف يفهمون من تلك النصوص : سأل سائل عليا عليه السلام فقال : "أكان مسيرك إلى الشام - يعني لقتال أهلها - بقضاء الله وقدره ؟" فقال له : "ويحك ! لعلك ظننت قضاء لازما ، وقدرًا حاتما ، ولو كان ذلك كذلك ، لبطل الثواب والعقاب ، وسقط الوعد والوعيد . إن الله سبحانه أمر عباده تخيرا ، ونهاهم تحذيرا ، وكلف يسيرا ، ولم يكلف عسيرا ، وأعطى على القليل كثيرا ، ولم يُعَصِّ مغلوبا ، ولم يُطْعَ مكرها ، ولم يرسل الأنبياء لعبا ، ولم ينزل الكتب للعباد عبثا ، ولا خلق السموات والأرض وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار" اهـ .

وحضر "الواسطي" بعض الأربطة - جمع رباط للصوفية - فسمع من غنى بقول العباس ابن الأحنف :

فأكثرُوا أو أقلُوا من إساءتكم فكل ذلك محمول على القدر

بفتح واستغاث وشق الجيب وحولق واستغفر وقال : "يا قوم ، أما ترون إلى العباس بن الأحنف لا يكفيه أن يحن حتى يكفر ، متى كانت الفضائح والذنوب والعيوب محمولة على القدر ؟ ومتى قدر الله هذه الأشياء وقد نهى عنها ؟ ولو قدرها كان قد رضى بها ، ولو رضى بها ما عاقب عليها ، ولو قدرها على عبده وعاقب عليها كان من الظلم الذي يقبح بالخلق ، فكيف بالخالق ؟ إنا لله ، لعن الله الغزل إذا شيب بالمجانة ، ولعن المجانة إذا قرنت بما يقدر في الديانة" .

وما زال يقول هذا وأشباهه حتى ردّ عليه أبو صالح الهاشمي فقال : "هون عليك يا شيخ ، فليس هذا كله على ما تظن ، القدر يأتي على كل شيء ، ويتعلق بكل شيء ، ويجري على كل شيء ، وبكل شيء ، وهو سر الله المكتوم ، والعلم الذي يحيط بكل شيء ، وكل ما جاز أن يحيط به علم جاز أن يجري به قدر ، وإذا جاز هذا جاز أن ينشأ عنه خبر ، وما هذا التجارح والتضايق والشاعر يهزل ويحجّ ، ويقرب ويبعد ، ويصيب ويخطئ ، ولا يؤاخذ به الرجل الديان ، والعالم ذو البيان" اه .

أما النصوص التي يشبه ظاهرها أن يكون العبد مكرها لا اختيار له ، وتقول إنه تعالى هو الذي يضل ويهدي فمعناها أنه تعالى يشرع أمام البشر السبيلين : سبيل الخير والشر ، ويرفع إلى أبصارهم النجدين : نجدى الهدى والضلال ، ولكل فريق منهم أن يختار لنفسه ما يوافق استعداده وتجربه إليه إرادته وتربيته ومزاجه ووراثته وعوامل المحيط الذي يعيش فيه ، وهذا الذي يختاره لنفسه منجذبا إليه بالجواذب المذكورة لا يقع إلا منطبقا على ما في علم الله وإرادته ولوح تقديرانه ، فلا يمكن أن يختار العبد لنفسه ما لا يكون ثابتا في العلم الأزلي القديم ، وثبت ذلك فيه لا ينفي عن العبد صفة الاختيار ولا يسلبه حرية الإرادة ، لأن صفة العلم ليست سوى صفة تكشف بها المعلومات لله تعالى ، فهي لا جبر فيها ولا إكراه ، وقد ذكر ابن القيم في كتاب "القضاء والقدر" نقلا عن الإمام أحمد بن حنبل رضى الله عنه أنه قال : "القدر علم الله" .

ولما كان مشرع السبيلين : سبيل الخير والشر ، ورافع النجدين : نجدى الهدى والضلالة هو الله سبحانه وتعالى ، قيل في بعض النصوص إنه هو الذي يضل هذا ويهدي ذاك ، وهو الذي قضى وقدر على زيد بأن يعمل الخير فيكون من أهل السعادة ، وقضى وقدر على عمرو بأن يعمل الشر فيكون من أهل الشقاوة ، وقضاؤه تعالى وقدره فينا خفيان عنا معشر البشر ، وإنما يظهران لنا ، ويقعان تحت أعيننا ، ماثلين في سنته الكونية ، ونواميسه الاجتماعية ، التي بها في جنابات هذا العالم ، وركب بناءه عليها ، فكل شخص أو أمة تراعى سنته ونواميسه الحكيمة العادلة ينساق أو تنساق إلى بحاج السعادة والخير ، وكل شخص أو أمة تدابر تلك السنن والنواميس وتهمل العمل بها ينساق أو تنساق إلى مواطن العاسة والشر .

فهذه السنن والنواميس البارزة لنا هي مظهر قضاء الله وقدره الخفيين عنا ، بل هي لعمرى المرآة الصقيلة التي ينعكس عنها إلى أبصارنا ما في اللوح السماوي من حكم الله وإرادته ومشيتته في تدبير هذه الكائنات وفي سعادة البشر وشقاوتهم .

وقد قرر القرآن هذا الأصل المحكم في مصير الأفراد والأُمم في غير ما سورة وآية من سورة وآياته : قال تعالى في سورة الأنفال : (قل للذين كفروا إن يتنوها ينغر لهم ما قد سلف وإن يعودوا فقد مضت سنة الأولين) ، وفي سورة الأحزاب : (سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا) ، وفي سورة فاطر : (فهل ينظرون إلا سنة الأولين . فلن تجد لسنة الله تبديلا . ولن تجد لسنة الله تحويلا) . وآيات أخرى بهذا المعنى في الفتح والإسراء والمؤمن والحجر وآل عمران والنساء .

ويظهر من سياق هذه الآيات وإطلاق القول فيها أن تلك السنن محكمة لا تنسخ ، مطردة لا تتخلف ، عادلة لا تحابي ، صارمة لا تقبل شفاعة ، فمن اتقاه وراعاها من أى قبيل كان ، ومن أى بلاد كان ، ومن أى دين كان سعد وفاز . ومن استخف بها وأعرض عنها شقى وخاب . فإذا لاحظنا هذا ولاحظنا الآيات الناطقة بأن الإيمان وحده هو مناط السعادة ، وأن الكفر وحده هو مناط الشقاوة — حكينا بأن بين هذه السنن وبين الإيمان والكفر علاقة متينة ورحا ماسة ، وأن اتقاء هذه السنن ومراعاتها شعبة من شعب الإيمان ، وأن الاستخفاف بها والإعراض عنها شعبة من شعب الكفر .

وهذا الموضوع لا يحتمل كلاما بأكثر مما تكلمنا ، وسر القضاء والقدر لا ينبغي الإشارة إليه بأكثر مما أشرنا ، والسعيد من وفق فنظر في ملكوت السموات والأرض فاتعظ وازدجر ، وتصفح أحوال الشعوب والأُمم كما أمره الله فقاس واستنتج واعتبر .

على أن المقام ربما وسع كلمة نحب ألا تفوتنا عملا بما أمرنا به القرآن من النظر في الأُمم وحالاتها ، ثم الاعتبار ببداياتها ونهاياتها ، فنقول :

أشرنا في أطواء كلامنا السابق إلى أن البشر قد تجذبهم إلى سعادتهم أو شقاوتهم ”جواذب“ وإن شئت سميتها ”عوامل“ : من مثل الملة التي يمارسون شعائرها وأحكامها ، والحكومة التي تسيطر عليهم ، والعائلة التي تربي أطفالهم ، والمدرسة التي تعلم أبناءهم ، والمحفل أو النادي الذي يحتشدون فيه للحديث أو السمر أو اللهو أو البيع والشراء أو مختلف الأعمال والمصالح — فالمراد من المحفل أو النادي ما يريده علماء التربية بقولهم ”جماعة الأصدقاء والمعاشرين“ — والوراثة التي تنقل إلى أبدانهم دم آبائهم ومزاجهم وتكوينهم الجسماني ، كما تنقل إلى نفوسهم طباع أولئك الآباء وغرائزهم وأخلاقهم وتكوينهم الروحاني ، والإقليم الذي يشربون ماءه ،

ويستنشقون هواءه ، ويلذوقون حره وبرده ، ويقتاتون بحصولاته . وهذا المؤثر يسميه علماء علم النفس "البيئة الجغرافية" ، ويسمون العوامل الأخرى "البيئة الاجتماعية" .

هذه "الجواذب" أو "العوامل" هي التي تعمل في تكوين الأمم ، وهي التي تعرف بها حالتها الاجتماعية ، ودرجتها في سلم المدنية ؛ فإن صلحت تلك العوامل واستقامت صلحت الأمم واستقامت في أفرادها وجماعاتها ؛ إذ ليست الجماعات إلا فردا متكررا ، وإن ساءت وفسدت ساءت أحوال الأمم ، وانحط شأنها ، وتقهر عمرانها .

هذه الجواذب هي التي تجذب البشر إلى ملابسة الخير أو مواجهة الشر ، وتقودهم من أليدهم إلى مواطن السعادة ، أو مواطن الشقاوة ، وهي التي تستدل بها ، ونمشي على أثرها في معرفة ماهو قضاء الله وقدره في هذه الأمة ، أو تلك الأمة .

فهما رأينا من كمال تلك العوامل وسدادها ، وثبات أمرها ، وحسن نظامها - فهناك فوز الأمة وفلاحها ، وتجلى حكم القضاء والقدر فيها ، ومهما رأينا من نقص "العوامل" وخطئها ، واضطراب أمرها ، وقبح نظامها - فهناك هلاك الأمة ودمارها ، وحكم القضاء والقدر فيها .

هذه العوامل هي التي يعنى بها الأنبياء والحكماء والمشرعون والعلماء الاجتماعيون ، فيجتهدون في إصلاحها ، وتقويم أودها ؛ حبا في إصلاح أممهم ، وترقية شأن شعوبهم ، ولم يال الدين الإسلامي في النصيح لأبنائه بوجوب توفيرها وتنقيتها من الشوائب ؛ كي تبقى صالحة لسعادتهم في دنياهم ، ونجاتهم في آخرهم .

قد يقال : إذا كانت هذه العوامل هي مظهر قضاء الله وقدره في البشر ، وعلى سلمها يترهم ربهم ويصعدهم ، ويُسقيهم ويُسعدهم ؛ فأتى لنا الوصول إليها بالإصلاح والترميم ، والتغيير والتبديل ؟ وهل هذا إلا افتئات على القدر ، وتداخل في وظيفته ؟

والجواب على هذا آيات القرآن نفسها ؛ فإنها إنما أمرتنا بالنظر في أحوال الأمم والاعتبار بما جرى ؛ لنتمسك بما كان سببا في نجاتها وسعادتها ، ولنتجنب ما كان سببا في هلاكها وشقاوتها . ونحن في كلتا الحالتين بالغون ما قضاء الله وقدره فينا "اعملوا فكل ميسر لما خلق له" .

وهذه الأمم المعاصرة لنا — معشر المسلمين — ارتفعت وعزت وغلبت بما كان من عنايتها بأمر العوامل المذكورة ؛ فليس الدين لديها اليوم ، ولا طرز الحكومة ، ولا نظام العائلة ، ولا قوانين المدرسة والتربية العامة وسائر مقومات الاجتماع — كما كانت عليه في عصورها الوسطى .

تقول : والإقليم والوراثة كيف يكون إصلاحهما ؟

فأما إصلاح "الإقليم" فيكون بتجفيف المستنقعات ، وغرس الأشجار ، وإنشاء الغابات والحراج ، وحفر الترع ، وجرا المياه النقية للشرب .

وأما إصلاح "الوراثة" وتحسين حالة النسل والإخلاف فقد أخذ الغربيون في الأيام الأخيرة يعتنون به ، ويستفيدون مما يرشدهم إليه العلم الصحيح ، والتجربة القاطعة بشأنه .

وهذا ، أو ذاك ، أو ذلك — مما يدخل تحت الطاقة ، ويستطيعه البشر . وقد أصبحت المكابرة فيه ضربا من الجهل والغباء بعد ما رأينا حسن أثره واضحا جليا في الأمم التي غلبت علينا ، وأصبحت المتحركة فينا .

وعجيب من مسلم أن يجرؤ على القول بأن في إصلاح الدين ، أو الحكومة ، أو نظام العائلة ، أو طريقة التعليم والتأليف ، أو سائر عوامل الحضارة وال عمران — مخالفة للدين ، أو تدخلا في وظيفة القضاء والقدر ، وهذا الشارع الأعظم صلى الله عليه وسلم يجعل الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ركنا من أركان الدين ، وليس هو في الواقع ونفس الأمر إلا مراقبة دائمة على الدين والمتدينين به ؛ فلا يتسرب إليه أو إليهم ما ليس منه في شيء فيفسد ويفسدون .

فالأمر والنهي إذن إصلاح ، والأمرون الناهون مصلحون . وكان بعض العارفين يقول : "ينبغي لأهل كل مذهب في كل عصر أن يكون فيهم عالم كبير ينقح مذهبهم ، وذلك لأن الأحكام تتغير بتغير الزمان" .

ومما يحسن إيرادنا هنا أن الشارع صلى الله عليه وسلم نهينا إلى تأثير ناموس الوراثة ، وأشار إلى أن في إصلاحه إصلاحا للنسل والذرية مذ قال : "تخيروا لنطفكم ؛ فإن العرق نزاع" يريد تزوجوا كرائم النساء ؛ فإن أولادكم من زوجاتكم يرجعون في طيب الأخلاق وقبحها إلى

أجدادهم من أمهاتهم، أما رجوعهم في أخلاقهم إلى أجدادهم من جهة آبائهم فبالطريق الأولى .
وليس فوق هذا إرشاد وتعليم لنا في أن نصلح شئوننا ، وعوامل اجتماعنا ، حتى ما يظن أنه مما
لا يدخل تحت طاقتنا كمسألة الوراثة هذه . وقال أبو الأسود الدؤلي مخاطبا أولاده :

وأول إحسانى إليكم تخيرى لمأجدة الأعراق باد عفاؤها

وبالجملة فإن الدين والعلم والتجربة والمشاهدة اتفقت كلها — وإن خالفها الجهل والتقليد
والمكابرة — على أن سعادة الأمم وشقاءها أمران ليسوران لها ، داخلان تحت طاقتها . وليس
معنى أن الله يضلها ويهديها إلا أنه تعالى يمهّد تحت مواقع أبصارها طريق الهدى والضلال ؛ فهى
إذا اخترت لنفسها طريق الهداية اختارته وسلكته بمشيئة الله وإرادته وسابق علمه ، وإذا اختارت
لنفسها طريق الضلال اختارته وسلكته أيضا بمشيئته تعالى وإرادته وسابق علمه . وما أحسن
ما قاله نبينا صلى الله عليه وسلم : ” أيها الناس ، إنهما نجدان : نجد الخير ونجد الشر ؛ فاجعل
نجد الشر أحب إليكم من نجد الخير ؟ “ ، ويشبه هذا ما قاله الإمام جعفر الصادق بن محمد الباقر :
” إن الله أراد بنا شيئا وأراد منا شيئا ، فما أراد بنا طواه عنا ، وما أراد منا أظهره لنا ،
فما بالنّا نستغل بما أراد بنا عما أراد منا ؟ “ .

وأوضح السبل الموصلة إلى سعادة الأمم هو إصلاحها دينيا ؛ فلا يكون فيه حشو أو بدعة ،
أو تكليف مما لم يأت به وحى ، ولا خبر صادق . ثم إصلاح بقية المقومات والعوامل التى قلنا
إنها هى التى تجذب بضبع الأمم إلى مراقي الكمال والعزة والغلبة . كما أن أقرب الطرق التى تأخذ
بالأمم توا إلى هاوية الذلة والمسكنة والدمار والاضمحلال — هو ترك الدين محشوا بالبدع ، وبما
لا يرضى الله ورسوله من الآراء والتعاليم والأقوال البين سقطها ، الظاهر غلطها . ومثل ذلك
في الضرر أن ترك كل قديم على قدمه من أوضاع حكوماتنا ، ونظام عائلاتنا ، وأصول التدريس
والتأليف في مدارسنا ومؤلفاتنا ، وسائر مقومات اجتماعنا . وقد تبين فساد ذلك كله وعدم إيصاله
إلى بحايح الحياة السعيدة ؛ فإن جميع ذلك سبل ضلال : بسطها الله تحت مواقع أبصارنا ،
وبالغ في تحذيرنا منها في محكم كتابه ؛ فاعلينا إلا التنبك عنها ، والاستعاذة به تعالى منها ؛
فنكون من الفائزين المهتدين إن شاء الله .

وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ

بعد أن ذكر الأصل الكلي في أن سعادة البشر وشقاوتهم أمران مرتبطان بسلوك ما أشرعه الله لهم من طريق الخير والشر ، وأن ترجيحهم أحد الطريقين مستمد من علم الله الأزلي ومستند إلى مشيئته القديمة ، وأن أبا جهل ورفاقه المستهزئين بالوحي القائلين "أما لرب محمد أعوان إلا تسعة عشر؟" لم يكونوا من أمرهم على بصيرة ، ولم يختاروا لأنفسهم إلا أفبح الخصال ، ولم يسلكوا إلا طريق الضلال — عاد إلى توبيخهم على قولهم المذكور الدال على غباوتهم ، وفرط جهلهم بما يجب لله من التعظيم والتوقير والوقوف عند حدود الأدب ، وتوبيخهم إلى أن خزنة جهنم إن كانوا تسعة عشر فليس ذلك عن قلة في جنود الله ؛ فإن جنوده كثيرة لا يعلمها إلا هو . و [الجنود] جمع جند ، وهم الأعوان والأنصار والعسكر . وقد يراد من الجنود أحيانا صنف من الخلق على حدة : يقال "هذا جند من الخلق قد أقبلوا" أى طائفة من الخلق . وفى الحديث : "الأرواح جنود مجندة" . ومنه المثل "إن لله جنودا منها العسل" . وربما كان المعنى الثانى هو المراد فى الآية .

وبدهى أن جنود الله التى يستتب لها بها السلطان الإلهى فى ملكوته ، والقهر الربانى على ما خلق ويخلق فى عالمى دنياه وآخرته — ليست عسكريا حربيا ، ولا جنودا بشريا ، وإنما هى وسائط لإجراء وتنفيذ وتصرف مطلق : منها ما علمناه ووقفنا عليه بالجملة فى هذه الدار . ومنها ما لم نعلمه بعد ولم نكلف البحث عنه ، وهو غيب عنا ، ولكننا نؤمن به وبما ورد على لسان الشارع من أحواله وشئونه على الوجه الذى يليق به ، وينطبق على حكمة خالقه ، ومن هذه الجنود أو الوسائط الغيبية الملائكة .

وكلنا معشر البشر نشعر فى أنفسنا أننا مسخرون للقهر الإلهى ، وخاضعون إلى ما يراد منا فى هذه الدار الدنيا . وقد أخبر الوحي الصادق أن لله جنودا جعلها وسائط فى تنفيذ مشيئته ، وتتميم إرادته فى خلقه . وقد سمى تلك الوسائط ملائكة . وكما قامت هذه الوسائط فى إيفاء وظيفتها فى هذه الدار ستقوم بمثل هذه الوظيفة فى الدار الأخرى على النحو الذى يريد الله تعالى ، ويناسب حال تلك اللشاة .

ولماذا رأى أولئك المستهزئون المكذبون تحديد عدة خزنة جهنم بتسعة عشر أمرا غريبا وهو شأن من شئون عالم آخر له سنن ونواميس خاصة به ، ولا يستغربون من عالمهم هذا

وَمَا هِيَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْبَشَرِ (٢١)

— الذى خلقوا من طينته — أحواله العجيبة ، وأطواره الغريبة ؟ وهذه قواته المختلفة ، وعناصره المتعددة ، وما شاء الله من مواده ومعادنه ، وحيوانه ونباته ، وشمسه وأقماره ، وثوابته وسياراته — ولكل منها عدد خاص ، ونسب معينة ، ومقادير محدودة ، وتراكيب معلومة — فلا نسميهم يسألون لماذا كانت البروج اثني عشر ولم تكن أكثر أو أقل ؟ ولماذا كانت حلقات زحل ثلاثة ولم تكن خمسة ؟ وأقماره ثمانية ولم تكن عشرة ؟ وألوان الشمس سبعة ولم تكن عشرين ؟ ولماذا كان الملح مركبا من عنصرين فقط إذا انحلا وتفرقا ضرا وأفسدا ، وإذا اتحدا وتركبا نفعا وأصلحا ؟ ولم يكن المقدار والخاصة على خلاف ذلك ؟ وهكذا مما لا يكون السؤال عن سره إلا ضربا من العنت والمحاكة وطمع المخلوق فيما كان من خصائص الخالق .

لقد غفل المشركون المستهزون عن سر التشريع الإلهي ، وذهلوا عن الحكمة في إنزال الوحي السماوي (وما هي) أى تلك الحكمة التى أنزل القرآن من أجلها (إلا ذكرى) وموعظة (للبشر) فيخافون ربهم ، ويتحاجزون بينهم ، وتنظم أحوالهم ، ويسعدون في دنياهم وأخرهم ولم تكن الحكمة قط لإفهام البشر حقائق النشأة الأخرى ، وجعلهم يدركون أحوالهم وقوانينها بالكنه ، فإن هذا غير مستطاع لهم ، وتعلقه لا يدخل تحت مقدورهم .

والضمير في قوله (وما هي) يرجع إلى الآيات السابقة وما أشبهها مما فيه بعض الوصف لعوالم الغيب ، أو أنه يرجع إلى الحكمة المفهومة للمخاطب بمعونة المقام كما أشرنا إليه في حل الآية وإرجاع الضمير إلى غير مذكور كثير في القرآن وفي كلام العرب ومثله قول أبي نواس :

ألا يا ابن الذين فنوا وماتوا أما والله ما ماتوا لتبقى

وما لك فاعلمن فيها مقام إذا استكملت آجالا ورزقا

أو أن الضمير يرجع إلى الحكاية والشأن والقصة ، وهو ما يسميه النحاة ضمير الشأن والقصة .

كَلَّا وَالْقَمَرَ ﴿٢٢﴾ وَاللَّيْلِ إِذَا أَدْبَرَ ﴿٢٣﴾ وَالصُّبْحِ إِذَا أَسْفَرَ ﴿٢٤﴾ إِنَّهَا
لَإِحْدَى الْكُبَرِ ﴿٢٥﴾

تقدم أن (كلا) كلمة ردع وزجر ، فالمعنى ليرتدع أولئك المستهزون بالوحي - الذين اتخذوا
من ذكر عذة خزنة سقربسلا إلى إنكارها ، والتشكيك فيها - عن فعلهم وسوء صنيعهم .

ثم أقسم بالقمر أن سقرحق ، وأنها إحدى الدواهي التي يبنى بها أولئك المكذبون ، وقد تقدم
بيان الحكمة في إقسام الله تعالى ببعض مخلوقاته والسر فيه ، أما قسمه هنا بالقمر والليل والصبح
فلتبنيه الأنام إلى ما في خلقها من جميل الصنع ، وبديع الإحكام ، وما قارن ذلك من الفرق بهم
وتقسيم أوقاتهم ، وتقدير أعمالهم ، بما فيه كل الخير والنفع لهم .

وفي الآية إيماء إلى أن الشمس والقمر مخلوقان لله ، وأنهما في حركتهما وإدبارهما وإسفارهما
ونشوء الليل والنهار عنهما - مسخران لأمره ، ساجدان بين يدي قدرته وقهره ، فكيف يحسن
بالبشر أن يعبدوهما ويكفروا بالإله الذي خلقهما ؟

وقوله (إذا أدبر) قرئ هكذا ، وقرئ أيضا (إذا دبر) و (إذا أدبر) ولا فرق بين دبر
وأدبر في المعنى : يقال : دبر النهار أو الصيف - إذا انصرم . ودبر فلان : ولى ، كأدبر . واستعماله
من دون همز قليل سوى قولهم : "أمس الدابر" . فانه شائع .

يقسم تعالى بإدبار الليل ، وإقبال النهار ، وهذا معنى (والصبح إذا أسفر) أى أضاء
وتبلىج ، وقال بعض أهل اللغة : إن من قرأ (دبر) بلا همز أراد أنها من دبر الليل النهار إذا خلفه
وأتى على أثره ، ودبر فلان فلانا إذا جاء خلفه ، فهو تعالى يقسم بالليل مذ يعقب النهار ، وبالنهار
مذ يسفر عقب الليل .

وضمير (إنها) يرجع إلى سقر كما مررت الإشارة إليه ، وقوله (الكبر) جمع الكبرى مؤنث
الأكبر ، وتجمع الكبرى على كبريات أيضا ، أى أن سقر المعذبة للكاذبين إحدى الدواهي الكبار
والأمور العظام التي ما اعتادوا بعد رؤية أمثالها ، فهي واحدة من بينهن لا نظير لها في العظم
والهول كما تقول : صاحبك فلان أحد الرجال ، ولا تريد إلا أنه واحد من دهاتهم
وشياطينهم .

نَذِيرًا لِلْبَشَرِ ﴿٣٦﴾ لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَتَقَدَّمَ أَوْ يَتَأَخَّرَ ﴿٣٧﴾

وقوله (نذيرا للبشر) [نذيرا] إما أن تكون مصدرا غير قياسي لأنذر إنذارا ونذيرا ، كما يقال أوعد إيعادا ووعدا وأعول المرأة إعوالا وعويلا ، وتعرب تميزا . أى أن سقر إحدى الكبر من جهة تخويفها وإنذارها للبشر ، كقولهم : فلانة إحدى النساء عفافا . يريدون أن لها شأنا بينهن ورجحانا عليهن من جهة عفافها ، وإما أن تكون اسم فاعل على غير قياس أيضا لأنذره فهو منذر ونذير كما يقال : آلمه العذاب فهو مؤلم وآليم ، وأوجعه الضرب فهو موجه ووجع ، ويعرب (نذيرا) إذ ذاك حالا من (إحدى الكبر) على إرادة معنى العذاب فيها لكي يصح مجيء (نذيرا) حالا منها ، وإلا وجب أن يقال : نذيرة ، بالتأنيث لكونه وصفا لإحدى الكبر المؤنث ، وليس "نذير" مما يستوى فيه المذكر والمؤنث ، لأنه بمعنى اسم الفاعل لا بمعنى سم المفعول فأن الله تعالى يقسم بأن سقر هي إحدى البليات أو الدواهي العظام منذرة للبشر ، محذرة لهم أنفسهم ، وقوة بطشها ، وروى عن الحسن البصري أنه قال : "والله ما أُنذِر الناس بشيء أدهى منها ولا بداهية أعظم منها" .

وبعد أن عم في كلمة [البشر] عاد نخص منهم أولئك الذين يهمهم شأن أنفسهم ، وينظرون في مستقبل أمرهم ، وهم موضع الخطاب ، ومحط الأمل ، فقال : (لمن شاء منكم) الخ . وقوله (لمن) بدل من (للبشر) أى أن سقر منذرة لكم أيها البشر وخاصة (لمن شاء منكم أن يتقدم) فيكون سابقا إلى الخير وممارسة الفضيلة فينجو (أو يتأخر) فيخلد إلى الشر وممارسة الرذيلة فيهلك .

وجعل بعض المفسرين قوله (لمن شاء) الخ مستأنفا لا بدلا مما قبله ، على أن يكون بمعنى قوله تعالى : (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) وقال في إعرابه : (أن يتقدم أو يتأخر) مصدر مؤول مبتدأ ، وقوله : (لمن شاء منكم) خبره مقدم عليه ، والمعنى أنكم معشر البشر - بعد أن أعذر الوحي إليكم ، وألقى من كلمات النصيح والإنذار ما ألقى عليكم - لم يبق إلا أن تستعملوا عقولكم ، وتستفيدوا من المشيئة والاختيار الممنوحين لكم ، فتختاروا لأنفسكم من الخير والطاعة ما هو المأمول فيكم ، والأليق بكم ، فإن كلا من التقدم إلى الخير ، والتأخر عن الشر - أمر ميسر لكم ، ممهد أمامكم ، منوط بحسن اختياركم ، فإن لم تتقدموا إلى الخير كنتم الجائنين على أنفسكم .

كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا أَصْحَابَ الْيَمِينِ ﴿٣٩﴾

وحمل الآية على هذا المعنى له تعلق كبير بآية (يضل الله من يشاء ، ويهدي من يشاء) الواقعة قبلها قريبا منها ، ومفسرة لها بالمعنى الذى قلناه فى تفسيرها : من أن للإنسان إرادة واختيارا وهما مناط التكليف والمؤاخذه ، وأن ما يؤهم الجبر والإكراه محمول على أنه تعالى أشرع أمام البشر طريق الخير والشر ، وأن سلوك المرء فى أحدهما مطابق لعلم الله الأزلى ، ومستمد من مشيئته القديمة .

ثم إن المعنيين اللذين قلناهما فى هذه الآية يظهر أنهما يصلحان فى آية سورة " التكويد " : (إن هو الا ذكر للعالمين . لمن شاء منكم أن يستقيم) لكننى لم أرهم تعرضوا لغير المعنى الأول ، وهو أن يكون (لمن شاء) بدلا من (للعالمين) لا مستأنفا كما قالوا باحتماله هنا .

مر أن آيات الوحي أنذرت الإنسان ، فما عليه إذن إلا أن يفعل ما يعين له ، من التقدم إلى الخير أو التأخر عنه إلى الشر ، ولكن على ثقته أنه إذا اختار الشر ومقارفة الإثم فليس بمعجز الله ، ولا بمفلة من أن يحاسبه على عمله ، ويأخذه بذنبه ، إذ (كل نفس) من نفوس البشر ارتكبت ذنبا أو اقترفت إثما ، هى (بما كسبت) أى ارتكبت واقترفت من ذلك الذنب والإثم (رهينة) أى مرهونة ومحبوسة يوم القيامة فى مقابل ذنبها حتى تعاقب عليه ، وأكثر المفسرين على أن [رهينة] ليست مؤنث رهين بمعنى مرهون ، لأن رهين هذا يستوى فيه المذكر والمؤنث ، فلا حاجة إلى أن يقال فى تأنيثه [رهينة] ، وإنما هى مصدر . يقال : رهنه رهنا ورهينة كما يقال شتمه شتما وشتيمة ، والمصدر يستوى فيه المذكر والمؤنث والمفرد والجمع ، ثم أطلق المصدر على الشيء المرهون وثيقة لشيء آخر ، فيقال : فلان رهن أو رهينة أو مرتين بجريرته كما يقال هو مُسَلَّمُ بها ومُبَسَّلُ بها ، وكله بمعنى أنه مأخوذ بها ولا فكك له منها ، فنفس البشر يوم القيامة مصبورة على معاقبتها والاقتصاص منها ، فتدخل دار العذاب غير مفكوكة (إلا أصحاب اليمين) أى إلى الفريق السعداء . وقد مر أن أهل اليمين والميمنة عنوان يطلقه الشرع على السعداء كما يطلق أصحاب المشأمة والشمال على الأشقياء ، فالسعداء هؤلاء فكوا رقابهم وخلصوها كما يخلص الرهن رهنه بأداء ما عليه من الحق ، وأصبحوا فى منجاة من العذاب على ذنوبهم ؛ إما لأنهم لم يقتربوا ذنوبا يستحقون معها العذاب ؛ بأن كانوا من الصديقين أو الأبرار ، وإما لأنهم اقتربوا من الذنوب مالم يبلغ بهم حد التعذيب عليها ؛ بأن تابوا منها توبة نصوحا فغفرها الله لهم ، أو عملوا من الصالحات

فِي جَنَّتِ يَتَسَاءَلُونَ ﴿٤٠﴾ عَنِ الْمُجْرِمِينَ ﴿٤١﴾ مَا سَلَكَكُمْ فِي سَقَرٍ ﴿٤٢﴾

ما أرى ثوابه على تلك الذنوب : كالأستشهاد في سبيل الله ونصرة الحق ، فكان ذلك كفارة لها . هؤلاء ينعمون (في جنات) مواطن كرامة وسعادة لا نظير لها ، ولذا نكرها ، ويكون من شأنهم فيها أنهم (يتساءلون) يسأل بعضهم بعضا (عن المجرمين) المذنبين الذين يعهدونهم في دار الدنيا قد كذبوا الوحي وأعرضوا عن الحق وارتكبوا من الآثام والمناكر ما استحقوا به العذاب . وتساؤل أصحاب اليمين عن المجرمين قد لا يكون عن جهل بأمر مصيرهم ، وسوء منقلبهم ، وإنما هو زيادة في تبكيت أولئك المجرمين وتوبيخهم ، وإدخال الألم والحسرة على نفوسهم ، مذ يتذكرون أن أسباب النجاة كانت موقوفة بين أيديهم في دار الدنيا فأهملوها ، وسبل الأعمال الصالحة كانت ممهدة تحت مواقع أبصارهم فتنكبوها ، على أن في تساؤل السعداء هذا السؤال ما يزيدهم التذاذا بنعيمهم ، ومسرة بما وفقوا إليه من العمل الصالح في دار الدنيا فسعدوا ونجوا من العذاب .

فإذا تساءلوا عن حال المجرمين كما وصفنا أجاوبهم بعض المسئولين من رفاقهم السعداء بما كان سبق لهم من الحوار مع هؤلاء المجرمين المعذنين فيقولون لهم : كنا أشرفنا على المجرمين يوما وسألناهم عن حالهم : قائلين لهم (ما سلككم في سقر) وما الذنب الذي أدخلكموها ؟ فان الخطاب في (ما سلككم) ، إنما هو مستند إلى سابق كلام مقدّر قبله ، وقد حذف اختصارا واعتمادا على فهم المخاطب ، ومثله كثير في القرآن ، وهو من أعجب أساليب إعجازه ، ولولا هذا التقدير لكان الظاهر الغيبة : على معنى أن السعداء يسأل بعضهم بعضا ما سلكهم ، أى سلك المجرمين في سقر ولهذا الإيجاز نظائر في أقوال العرب وأشعارهم ، من ذلك قول حاتم الطائي :

لكل امرئ نفسان : نفس كريمة ونفس فيعصى نفسه ويطيعها

وأصل الشعر مع المحذوف منه هكذا [لكل امرئ نفسان : نفس كريمة ونفس لئيمة : فهو تارة يعصى نفسه الكريمة ويطيعها ، وطورا يعصى نفسه اللئيمة ويطيعها] .

فالمذكور في الكلام تسع كلمات ، والمحذوف منه تسع أيضا بقدر ما ذكر . ومنه أيضا قول الآخر :

شهور ينقضين وما شعرنا بأنصاف لهن ولا سرار
فأما ليلهن نخير ليل وأطيب ما يكون من النهار

أى وأما نهارهن فأطيب الخ .

قَالُوا لَمْ نَكُ مِنَ الْمُصَلِّينَ ﴿٤٣﴾

ويمكن إبقاء الخطاب في (ماسلككم) على ظاهره . على معنى أنت السعداء (يتساءلون عن المجرمين) المعذنين فيما بينهم ثم يعرجون على مقرهم من دار العذاب فيسألونهم عن حالتهم مواجهة قائلين لهم : (ماسلككم في سقر ؟) وفي هذا التوجيه حذف أيضا بضع كلمات كما حذف في التوجيه الأول .

(قالوا) الخ هذا جواب المجرمين لأصحاب اليمين الذين سألوهم عن الذنب الذي أدخلهم سقر . والصلاة : في اللغة الدعاء والدين والاستغفار ، ثم غلبت في العبادة المعروفة ذات الركوع والسجود ؛ فقول المجرمين إنهم لم يكونوا من المصلين — الأشبه أن يكون معناه لم تكن من أهل الدعاء والدين الذي يرضى الله تعالى وهو دين الإسلام ، وقد مر أن الدعاء قلما يذكر في القرآن إلا مراداً به العبادة ، والله تعالى إنما يحكى في هذه الآيات عن أبي جهل وأحزابه من سادات قريش السابحين في الشرك والضلالة وعبادة غير الله ؛ فهم — بأن تطلب منهم في أول الأمر الصلاة بمعنى الدين والدعاء والعبادة — أجدر من أن تطلب منهم الصلاة المعروفة ذات الركوع والسجود ، على أن هذه الصلاة لم تكن فرضت يومئذ ، وإنما فرضت قبل هجرته صلى الله عليه وسلم إلى المدينة بسنة ، وبعد بعثته باثنتي عشرة سنة ، وسورتنا هذه (يأيها المدثر) مكة بل من أول ما أنزل عليه صلى الله عليه وسلم كما مر ؛ فالجرمون المخاطبون بها لم يكونوا مكلفين حين نزولها إلا الصلاة بمعنى الدين والعبادة . ويشد ذلك قول هؤلاء المجرمين عن أنفسهم إنهم كانوا يكذبون بيوم الدين ، والوحى في عشر السنوات الأولى التي قضاها صلى الله عليه وسلم في مكة بين أظهر المشركين إنما كان غرضه أمرين : (١) إثبات التوحيد والعبادة لله دون المعبودات الأخرى (٢) إثبات البعث والحساب . وقول المجرمين ” ما كانوا من المصلين وإنهم كانوا من المكذبين بيوم الدين “ يلتحم مع الغرضين المذكورين إذا فسرنا الصلاة بالدين والعبادة .

وسمى يوم القيامة ”يوم الدين“ لأن فيه يقع الجزاء والحساب والقضاء والقهر ، وكل هذا من معاني كلمة الدين . ويسمى أيضا يوم الدينونة أى الحشر والقضاء بين الناس ، والديان القهار والمجازى والقاضى . قالوا : ”وكان على بن أبى طالب رضى الله عنه ديان هذه الأمة بعد نبيا“ ، أى تفرد بمزية القضاء والحدق في فصل الخصومات بعده عليه الصلاة والسلام

وَلَمْ نَكُ نَطْعِمُ الْمَسْكِينِ ﴿٤٤﴾ وَكُنَّا نَحْوُصُ مَعَ الْخَائِضِينَ ﴿٤٥﴾

ذكر المجرمون من خصالهم البشعة التي استحقوا بها دخول سقر — أربعة خصال : خصلتين تتعلقان بالعقائد وهي الشرك وإنكار البعث ، وخصلتين تتعلقان بالأخلاق ، وهي البخل والحوض في الباطل .

وكان القوم في جاهليتهم يبذرون أموالهم في السفه والقمار ومنافسة بعضهم بعضا فيما لا يفيد ولا ينفع ولا يظهر له أثر في مصالحهم الاجتماعية ، ولا سيما كفاية المساكين وسد جوعتهم وتخفيف ألم البؤس عنهم ؛ فهؤلاء المجرمون ما كانوا يطعمون المساكين ، وما كانوا يتفقون فيما بينهم على سد هذا الخلل ، وملافة ذلك الشر ، أعنى البؤس والفقر الذي إذا فشا في قوم أفسد أخلاقهم ؛ وقطع روابطهم ؛ وعرضهم للشر من الأمراض الجسمية والاجتماعية والسياسية . ومعضلة أوروبا اليوم إنما هي الفوضوية ؛ ولم يولدها فيهم إلا استئثار حائتهم وذوى الدهاء فيهم بالأموال الطائلة ؛ واحتجانها عن عانتهم وسواد أمتهم . وإن معظم اهتمام عقلائهم في هذه الأيام في تسوية هذه المشكلة ، وحل تلك المعضلة .

وإنما اقتصر المجرمون من أمر العناية بالمساكين على ذكر عدم إطعامهم لأن القوت أهم ما يحتاجون إليه في قيام حياتهم ، وإلا فإن الإسلام يأمر بمواساتهم ، والرفق بهم ، وإيصال أى ضرب من ضروب الخير إليهم ، وقد مر في سورة الحاقة شيء من هذا عند قوله تعالى : (ولا يحض على طعام المسكين) .

أما الخصلة الأخلاقية الثانية التي اعترف المجرمون بأنهم كانوا اقترفوها في دنياهم فهي الخوض في الباطل ؛ والاجتماع على الغيبة والنميمة ؛ والإفساد في الأرض ؛ وتدمير المكائد لأهل الحق ؛ وتأريث نار الفتن بينهم : مما يؤدي إلى تسلط الأشرار ؛ وخراب الديار ؛ وسقوط جماعات البشر في مهاوى الشقاء والبوار ؛ فهم يعترفون بأنهم ما كانوا يجتمعون في أنديةهم للذاكرة فيما يفيد وينفع ويصلح ؛ وإنما كانوا يجتمعون للخوض فيما يضر ويعر ويفسد .

وأصل [الخوض] الذهاب في الماء ؛ ثم نقل إلى الذهاب في الكلام والأخذ بأطراف الحديث ؛ ثم غلب على الإثثار من باطل الكلام وما لا يفيد من الحديث . وقبلما ذكر الخوض في القرآن إلا مرادا به هذا المعنى وإن لم يذكر مفعوله . ومثله في ذلك "أسمعه" فإنهم يريدون

وَكُنَّا نَكْذِبُ يَوْمَ الدِّينِ ﴿٤٦﴾ حَتَّى آتَيْنَا الْيَقِينَ ﴿٤٧﴾ فَمَا تَنْفَعُهُمْ شَفَاعَةُ
الشَّافِعِينَ ﴿٤٨﴾

أنه أسمع ما يكره من القول وإن لم يذكر ذلك ، و "ذَكَرَهُ" فانهم يريدون به أحيانا أنه عابه
وتكلم في حقه بسوء وإن لم يذكر ذلك أيضا . ومنه قوله تعالى : (سمعنا قتي يذكرهم يقال له
ابراهيم) وكانوا سمعوه يعيب أصنامهم .

قال المجرمون إننا ما زلنا في دنيانا نشرك بالله ، ونكذب بالمعاد ، وزنكب من مساوى
الأخلاق أنكرها وأبشعها ، كالقسوة على المساكين ، والانهماك في الأباطيل (حتى آتانا اليقين)
العذاب الحق الذى تقاسيه اليوم ، أو المراد باليقين الموت الذى توقن به كل نفس ، وفيه إيماء
إلى أنهم كانوا في غفلة عنه ، وأنهم لانهماكهم في الباطل كانوا على شك منه .

ثم لما أنهى القوم حديثهم عقبه الوحي بأن هؤلاء المجرمين المرتكبين ما ذكر من منكر الأعمال
لا منتقد ينقذهم من صب سوط العذاب عليهم ، ولا وسيلة من وسائل النجاة تحول بينهم وبين
إنفاذ العدل الإلهي فيهم ، فقال : (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) و [الشفاعة] فى المجرمين لدى
الحكام : إما أن يكون الحامل عليها الكفكفة من ظلم أولئك الحكام ، وتخطيهم حدود العدل
فى حكمهم ، وإما أن يكون الحكم أصاب مقطعه من العدل غير أن للحكوم عليه فى رأى الشفعاء
مزية تقتضى الفرق به ، والعفو عنه . والأول لا يتصور فى جانب الألوهية ، ولا يجوز أن يقال
إنه تعالى جار أو ظلم فى الحكم على المجرمين ، وأن هؤلاء الشفعاء يتوسطون فى إزالة ذلك الظلم
عنهم . أما الثانى وهو عفو الحاكم عن المجرم رحمة به وشفقة عليه فإن هذا ممكن الوقوع
فى جانب الألوهية بعد أن يأذن به سبحانه وتعالى (من ذا الذى يشفع عنده إلا بأذنه) ولكن
هذا الفريق من المجرمين الذين وصفوا بما ذكره الوحي لا يقبل الله شفاعة الشافعين فيهم ، فليعلم
إذن من كان على شاكلتهم من الناس هذا الأمر ، ولا يعتمدوا على الشفاعة ، وإنما عليهم أن
يعتمدوا على التوبة والإنابة إلى الله ، فهى وحدها التى تنجيهم من العذاب .

وهذا لا يمنعنا أن نقول إنه ما أنخر المسلمين وأفسد حالهم ، وأنخر عمرانهم ، وأوهن عزائمهم
من العمل بأوامر القرآن والخوف من زواجه ، وجعلهم يتسامحون فيما تسامحوا به مما أصبح أمره
متعلما معروفا ، وعلى أسلات الألسنة والأقلام مذكورا وموصوفا — شئ مثل سوء فهمهم الشفاعات

وتخدر أعصابهم بالمدد والبركات ؛ ونفوذ سلطة الكرامات ؛ بل التلعب أحيانا في فهم الآيات
البيانات ؛ فقول قائلهم : ”إذا قال لي ربي يوم القيامة : ما عرك بربك الكريم ؟ أقول له غرني
كرمك يارب“ — ذهاب في فهم كلمات اللغة غير مذاهبها ؛ وحمل للكرم على معناه في لنتهم
لا في لغة العرب ؛ وإلا فان معنى الكرم في اللغة أن يبلغ المرء الكمال في الأخلاق والسجايا ؛
وكرم الله كماله في صفاته القديمة التي منها العدل والحق وصدق الوعد واطراد السنن والنواميس
الأزلية اطرادا عليه تقوم السموات والأرض ؛ ويتحقق ما في الوحي الإلهي من واجب وفرض
بحيث يظهر أثر إرشاده وتعليمه في نفوس العاملين به ؛ والسالكين في طريقه ؛ أما أن المراد
بكرم الله الكرم الذي قد يكون في بعض الأمراء والسادات ، تُرتكب إليهم كل جناية مخربة ؛
وتمارس بين ظهرانيهم كل رذيلة بشعة مفسدة ؛ ثم يعفو ذلك السيد عن صاحبها فلا يهاج ؛
ويحلم عليه فلا يمس بعقوبة ولا إزعاج — فان هذا غير مراد بالآية ؛ وليس كرمه سبحانه وتعالى
هذا النوع من الكرم . نعم إنه تعالى مطلق التصرف في خلقه يحكم ما يشاء ويفعل ما يريد ، ولكنه
سبحانه وتعالى وصف ذاته القديمة أيضا بأنه حكيم قيوم صادق الوعد والوعيد ؛ لا تتبدل سننه
ولا تتغير نواميسه . ولا نقول هذا تعظيلا لمنطوق النصوص الأخرى الدالة على شمول عفوه سبحانه
عن المذنبين ؛ وقبوله شفاعة بعض الشافعين ؛ وإنما نرى أن نقف إزاء هذه النصوص وقفة
تحفظ ؛ فلا نؤمن إلا بما صح وثبت منها ؛ ثم نقف إزاء هذا الصحيح الثابت وقفنا أمام المتشابه
تقريبا ؛ فنقول : إنه سبحانه وتعالى يقبل شفاعة نبينا صلى الله عليه وسلم وغيره من المقربين
قبولا يدل على علو مقامهم ؛ وعظيم منزلتهم عند ربهم ؛ ويلتئم مع حكمته تعالى وعدله ؛ واطراد
سننه وصدقته في وحيه ؛ من حيث يؤدي اتباع هذا الوحي الصادق إلى قيام أمر العالم ؛ وانتظام
شمل الأمم ؛ واستقرار الخير والعمل الصالح فيهم ؛ واستتباب العدل والحق بينهم .

وأما إذا صدقنا كل ما يقال ويروى بشأن الشفاعة في الجرمين والآمين ، والتوسط في العفو
والصفح عن المخربين المفسدين — فإن الوحي السماوي الصادق يضعف إذ ذاك تأثيره في نفوس
المخاطبين ؛ كما وقع وشاهدنا أثره عيانا في المسلمين . فانظر إليهم اليوم وقد أتاهم اليقين ، هل
قُبلت منهم معذرة أو نفعتهم شفاعة الشافعين ؟ ؟

فَا لَهُمْ عَنِ التَّذْكَرَةِ مُعْرِضِينَ ﴿١٩﴾ كَانَهُمْ حُرٌّ مُسْتَنْفِرَةٌ ﴿٢٠﴾ فَزَتْ مِنْ قَسْوَرَةٍ ﴿٢١﴾
بَلْ يُرِيدُ كُلُّ امْرِئٍ مِنْهُمْ أَنْ يُؤْتَى صُحُفًا مُنَشَّرَةٌ ﴿٢٢﴾

قوله ﴿فألهم﴾ الخ تفريع على قوله قبله (فما تنفعهم شفاعة الشافعين) أى إذا كانت السنة الإلهية في المجرمين المكذبين ما ذكر من ارتباهاهم بما كسبوا من أعمالهم ، وعدم قبول شفاعة الشافعين فيهم — فما بالهم يعرضون عن التذكرة يعنى عن القرآن وآياته التي أنزلت لوعظهم وتذكيرهم ، فلا يتدبرونها ، ولا يهتدون بهديها ؟

ثم وصف إعراضهم عن القرآن وتباعدهم عن استماعه ، ونفورهم ممن يدعوهم إلى الانتفاع به فقال : هم من هذه الجهة (كانهم حمر) جمع حمار ، والمراد بها حمر الوحش ؛ فإن العرب كثيرا ما يضرّبونها مثلا في النفار والشروء ، ولا سيما إذا نجم لها شاخص ، أو أراد أن يقنصها قانص وقوله (مستنفرة) بكسر الفاء بمعنى أنها طلبت النفار من نفسها ، وتكلفته تكلفا ؛ فيكون ذلك أشد في عدوها ، وأبعد في نفارها . ومن قرأها بفتح الفاء أراد أنها قد نقرّها منفر ، وحملها على العدو حامل . ثم ذكر السبب الذي دعاها إلى النفار فقال : ﴿فزت من قسورة﴾ والمشهور المتبادر من معنى [القسورة] أنه الأسد ، مشتق من القسر ، وهو القهر والغلبة . يقال : ليوث قساور . ويحتمل أن يكون المراد بالقسورة جماعة الرماة الذين يتبعون حمر الوحش والوعول لصيدها وقنصها . والمعنى الأول أشهر كما قلنا : سئل ابن عباس رضى الله عنهما عن قوله تعالى ﴿فزت من قسورة﴾ فقال : هو بالعربية "الأسد" ، وبالفارسية "شير" ، وبالنبطية "أريا" ، وبالجهشية "قسورة" ، فالقسورة على قوله معربة وليست بعربية الأصل .

ثم وصف الوحي من حال أولئك المكذبين ما هو أشد غرابة من حالة إعراضهم عن القرآن فقال : ﴿بل يريد كل امرئ منهم﴾ الخ كأنه يقول : دع عنك ذكر إعراضهم وغبائهم ونفارهم فنار العجاوات مما فيه خيرهم وسعادتهم وهداهم ، واستمع ما هو أعجب وأغرب : ذلك أنهم (يريد كل امرئ منهم) أى من أولئك المعرضين ﴿أن يؤتى صُحُفًا مُنَشَّرَةً﴾ مكان القرآن ؛ فيشبه حالهم أن يكونوا يعلمون أن القرآن من عند الله لكنهم يعرضون عنه ، وينفرون من سماعه ، إذ لم يؤت كل واحد منهم صحيفة خاصة به ، تتشرّين يديه ؛ ليؤمن بالنبي صلى الله عليه وسلم . ولا ريب أن هذا الاقتراح والاشتراط في تصديقهم بالقرآن وبالنبي عليه السلام أغرب من

كَلَّا بَلْ لَا يَخَافُونَ الْآخِرَةَ ﴿٥٣﴾

إعراضهم عن سماع القرآن ، ومن ثم عطف جملة (يريد كل امرئ منهم) على ما قبلها ببل التي تفيد الإضراب والانتقال إلى ما هو أهم وأجدر بالذكر .

و[الصحف] : القراطيس التي تكتب وتتداولها أيدي الناس يقرءونها وينظرون ما فيها .
و[المنشرة] : المبسوطة المفتوحة تحت أبصارهم : يقال نشر الثوب ونحوه إذا بسطه ، ويقولون "صحف منشرة" ، وملاء منشرة" أي منشور ومبسوط . والملاء جمع ملاءة : الثوب المعروف ، ويقول لها العامة : ملاية .

واختلفوا في أولئك المعرضين عن التذكرة كيف كانوا يوردون اقتراحهم بشأن الصحف المنشرة ، فروى أنهم قالوا له صلى الله عليه وسلم : "إننا لن نتبعك حتى تأتي كل واحد منا بكتاب يكتب في السماء ويترل به الملك ساعة كتب غضاً رطباً منشوراً لم يطو بعد ، عنوانه : من رب العالمين إلى فلان بن فلان . اتبع محمد بن عبد الله" ويؤيد هذه الرواية آية (ولن تؤمن لرقيق حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه) وقيل إنهم قالوا له : "إن سرك أن نتبعك فليصبح كل واحد منا فيرى عند رأسه صحيفة منشورة فيها تأمينه من النار" يعني أنهم يريدون أن يؤثروا ببراءة من عذاب جهنم قبل أن يعملوا العمل المنجى منها . وهذا دأب قصار النظر الذين يطلبون النهاية في البداية ، ويريدون بلوغ الغاية قبل تكلف المسير إليها . ولما كان فاعلهم هذا دالاً على مكابرتهم وفساد رأيهم زجرهم عنه بكلاً فقال تعالى : (كلا بل لا يخافون الآخرة) الخ .

(كلا) أي ليرتدعوا عن رأيهم الفاسد في أمثال هذه الاقتراحات ولا يحسبوا أن دعواهم أن يتبعوا رسولنا ، ويصدقوا وحيانا إن هم أوتوا الصحف المنشرة — تروج علينا ، فالأمر ليس كذلك ، (بل) هم قوم (لا يخافون الآخرة) ، ولا يصدقون بالبعث والحساب ، ولا يؤمنون بداري النعيم والعذاب . وهذا هو الذي أفسدهم ، وجعلهم يعرضون عن التذكرة والانتفاع بها . ولو أنهم خافوا الآخرة لصدقوا تلك التذكرة ، وأغناهم ذلك عن الصحف المنشرة . فطلب الصحف المنشرة على الوجه الذي سبق إنما كان خداعاً وتمويهاً وإضاعة وقت ، ولشد ما نهاهم القرآن عن اقتراح آيات وعجائب أمثال ذلك ، ووجههم على تكليفه صلى الله عليه وسلم الإتيان بها . وقال لهم : إن القرآن وما فيه من الهدى والحكمة والإرشاد هو الآية الساطعة ، والهجمة القاطعة ،

كَلَّا إِنَّهُ تَذَكَّرٌ ﴿١﴾

على صدق مجد ، وأنه مرسل من عند الله ، فلا ينبغي لعاقل أن يطلب من الطبيب شهادة على صحة دعواه وحذقه في صناعة الطب من مثل إنزال صحيفة من السماء ، أو تفجير ينبوع من الأرض بعد أن يكون الطبيب أقام دليلاً على دعواه ، وثبتاً على مهارته — شفاء الأمراض ، وإبراء ذوى العلل والعايات .

وهكذا كان شأنه صلى الله عليه وسلم في هداية الناس بالقرآن وما أودعه من الحكم والعبر ، وبما فطرت عليه ذاته الشريفة من الأخلاق الفاضلة ، والسجايا العالية . كل ذلك كان أكبر آية على صدق دعوته ، وأوضح معجزة على استقامة محجته ، فما بال هؤلاء القوم يقترحون عليه الإتيان بالغرائب والعجائب ؟ ألا يعلمون أن دورها ذهب مع أدوار الأمم القديمة وقت أن كان السحر والشعوذة والطلسمات والكهانة واستخدام الجان وتسخير الشيطان وإخراجه من بدن الإنسان — ركناً من أركان دياناتهم ، وشعبة من شعب شرائعهم وتعاليمهم ؟ أما وقد بعث محمد صلى الله عليه وسلم ، وأطلقت العقول من عُقْل الأوهام ، واستعد البشر بمجموعهم للدخول في طور كريم ، من التشريع والهداية والتعليم — فإن الوحي لم يعد يجبهم إلى كل ما كانوا يقترحون ويسألون ، بل كانوا إذا اقترحوا شيئاً أحالهم على القرآن وما فيه من الهداية العملية المجربة في استصلاح نوع الإنسان ، على أن الوحي لو كان يجبهم إلى أى اقتراح اقترحوه — وهم من العناد والمكابرة على ما كانوا عليه — لا اقترحوا أمراً آخر وهكذا . ومن أجل ذلك رد الوحي عليهم اقتراحهم الصحف المنشرة ، فقال في أوائل سورة الأنعام : (ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين) .

زجرهم أولاً بقوله (كلاً) عن اقتراح أمثال الصحف المنشرة وأشار في قوله (بل لا يخافون الآخرة) إلى أنه لم تحملهم على اقتراح الصحف رغبتهم في التذكرة ، بل كان الصارف الحقيق لهم عنها عدم خوفهم من الآخرة . ثم عاد فزجرهم عن كل أعمالهم ومجموع مزاعمهم فقال (كلاً إنه تذكرة) أى فليتردعوا عما هم عليه من الاستخفاف بأمر الآخرة ، وعدم الخوف منها ، وإعراضهم عن التذكرة ، والتصديق بها ؛ وادعاء أنهم إن أجيبوا إلى مقترحهم ، وأعطوا الصحف المنشرة آمنوا . ليرتدعوا عن ذلك جميعه . ثم بين سبب وجوب ارتداعهم مشيراً إلى أن شأن مجد والقرآن الذى أتاهاهم به قتل نفوسهم ، وأرمل قلوبهم — فوق أوهامهم ، وفوق ما يتصورون ؛ فقال :

فَمَنْ شَاءَ ذَكَرْهُ ﴿١٠﴾ وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ

(إنه تذكرة) أى إن ذلك الذى أُنَاهم به محمد صلى الله عليه وسلم ، وحضهم على تصديقه ، وترك الاعراض عنه — ليس سوى تذكرة لهم : تذكرهم بما يجب عليهم من الإيمان بالله ، وترك عبادة الأصنام ، وتنذرهم إن كذبوا واستكبروا عذاب يوم عظيم . فالضمير فى قوله (إنه) يرجع إلى ما أتى به النبي صلى الله عليه وسلم من الوحي والقرآن المفهوم بمعونة المقام . وكان سبق فبرعنه بالتذكرة مذقال : (فما لهم عن التذكرة معرضين) أى عن القرآن والوحي . وقد سماه فى هذه الآية تذكرة لما فيه من التذكير والإنذار والتحذير .

ثم عاد أخيرا بعد ما زجر المعرضين عن التذكرة زجرا عاما فأكد لهم أمر القرآن والوحي الذى أعرضوا عنه ملقباً له مرة ثانية بأنه تذكرة وإرشاد للبشر ، ليس له وصف سوى ذلك ، فما هو سحر يؤثر ، ولا قول البشر كما زعموا ، فلماذا يعرضون عنه ، ويتشائمون به ، ويرتابون فى نصحه ، ولم يطلب محمد صلى الله عليه وسلم منهم عليه أجرا ، ولا كفهم عطاء أو منصبا يكون لأولاده من بعده ذخرا ؟ فهو محض خير لهم ، وكل نفعه عائد عليهم .

وفى ختمه السورة بقوله إن القرآن تذكرة ربط لنهايتها بدايتها ، وتذكير بموضوعها الذى سبق فى فاتحتها ، وهو الإنذار بالقرآن مذقال : (يأيها المدثر قم فأنذر) أى خوف قومك بالقرآن . فهو هنا يقول : إن ذلك الذى أمرتك بالإنذار به فى أول السورة ليس سوى تذكرة باللغة للقوم ، وإرشاد وموعظة لهم . وهى لعمري كافية فى إصلاح أمرهم إذا تدبروها واتعظوا بها ، ولكن هل يرجى منهم الاتعاظ والادكار ؟ أجاب عن ذلك بقوله : (فمن شاء ذكره) أى فمن شاء وأحب منكم أيها المعرضون عن القرآن ، المتغافلون عن هديه — ذكره فلم ينسَ ووضعَه نُصِبَ عينيه فلم يُعرض عنه ، فإن القرآن جدير بالإقبال عليه ، خَلِيق بالاستضاءة بنوره ، وكل واحد منكم أيها المعرضون متمكن بتمكين الله أن يختار طريق نجاته وما به صلاح أمره ، فليختر إذن ولا يقصر ، لكنهم غلبت عليهم الشقوة فلا يختارون إلا الوبال ، وتغلقت قلوبهم بالغفلة فلا يذكرون إلا الضلال . أما القرآن وما فيه من الخير والهدى فلم يعد فى مكتهم اختياره وادكاره وتوجيه نفوسهم إليه (إلا أن يشاء الله) ذلك منهم بقهرهم عليه ، لكنه تعالى لم تجر عادته فى شرائعه السماوية ووحيه المنزل على أنبيائه أن يقسر الناس عليه قسرا ، أو يسوقهم إلى التصديق به جبرا . وإنما هو تعالى يُسرِع لهم السيلين : سبيل الخير والشر ، ويرفع لهم النجدين :

نجدى الهدى والضلال ، وينصب لهم المنارين : متارى الحق والباطل . وعليهم هم أن يختاروا لأنفسهم ؛ فمن شاء منهم ذكر ، واتعظ واعتبر ، ومن شاء غفل ونسى ، وكان هو الجانى المسىء وهذا هو تفسير قوله تعالى (وما يذكرون إلا أن يشاء الله) .

وبهذا التفسير إن شاء الله يلتحم معنى الآية أشد الالتحام مع قوله قبله (فمن شاء ذكره) الدال على تخيير المكذبين ، وتنبههم إلى ما أودعه الله نفوسهم من المكنة والاستطاعة .

يقول تعالى : (فمن شاء) من أولئك المعرضين أن يذكر القرآن (ذكره) ، وبقى منه على بال ، فينتفع به . (و) لكنهم لفرط عنادهم ، ولسوء ملكتهم (ما يذكرون) أى ما يشاءون أن يذكروه ذكر انتفاع واستفادة (إلا أن يشاء الله) ذلك بقهرهم عليه . وهذا لا يكون منه تعالى ؛ لكونه مخالفا لسنته الإلهية مع الأمم . وإنما سته أن يبين لهم الأمرين ، وينصب أمام أعينهم الطريقين ؛ فاذا سلكوا طريق الحق نجوا ، وإذا سلكوا طريق الضلال خسروا وهلكوا . كما قال تعالى فى آية أخرى (فمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر) .

أما قهره تعالى الأمم ، وإجباره لها على الإيمان الذى قلنا إنه لم تجر عاداته به — فهو كأن يبرز للعيان وسائل الهلاك وأدوات التعذيب ، ثم يقال للمكذبين : إن لم تؤمنوا فأنتم هالكون بما ترون من هذا العذاب الواقع بكم . والتكليف على هذه الصورة لم تأت به الشرائع السماوية ، بل قال العلماء : إن معجزات الأنبياء والآيات التى تظهر على أيديهم لا تتعدى دائرة التحذير والتخويف كما قال تعالى : (وما نرسل بالآيات إلا تخويفا) . قالوا : ولا يكون من المعجزات أن يقول النبي لقومه : " انظروا إلى السماء ، فيرون فيها مكتوبا بأحرف من نور بالقطع الكبير " فلان نبى ، ودينه هو الحق ، فاتبعوه " ثم يبق ذلك باديا للعيان حقبة من الزمان . قالوا : هذا لا يمكن أن يقع ؛ لأن الدعوة إلى الإيمان بهذه الصورة تصبح من قبيل الإلحاء والإجبار ، ودعوة الأمم التى جرت بها عادة الله تعتمد على التفويض والاختيار ؛ ليهيز بذلك الأبرار من الفجار . ولو كتب فى السماء بأحرف من نور كما وصفنا لم يعد فى وسع أحد من الناس مهما كان حيندا ، أو سمجا بليدا — إلا الإذعان والتصديق .

فقوله تعالى هنا : (وما يذكرون إلا أن يشاء الله) بعد قوله : (فمن شاء ذكره) الدال على مطلق التفويض والتخير — لا ينبغي تفسيره بغير ما ذكرنا . ومثله فى سورة التكاوير آية (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) بعد قوله (إن هو إلا ذكر للعالمين لمن شاء منكم أن يستقيم) .

هُوَ أَهْلُ التَّقْوَى وَأَهْلُ الْمَغْفِرَةِ ﴿٥٦﴾

فهو تعالى يقول: إن الاستقامة يا معشر البشر داخلة تحت مشيئكم فاستقيموا إذن. ثم قال موضحاً لهم ، ناعياً عليهم سوء ملكتهم ، وفرط عنادهم : (و) لكن أتم (ما تشاءون) الاستقامة واتباع الحق (إلا أن يشاء الله) ذلك منكم بالقهر والإجبار والإلجاء ، وهذا لم تجربه عادته تعالى في الأمم ، فالويل لكم إن لم تنظروا لأنفسكم .

وإن لم نقل في تفسير هاتين الآيتين ما قلنا وقعنا من ظاهر التناقض فيهما في جدال لا يتهى مع المبطلين المشككين ، من حيث يفتح لهم باباً إلى تعطيل الشرائع ، وتهوين أمر الدين .

على أن ما قلناه في معنى الآيتين لا يخرج عما عرف في مخاطب أهل اللغة : تقول لابنك الذي تريد أن تسلك في تربيته طريق الرفق واللين " افعل يا بني ما أمرك به ، ولا عذر لك في المخالفة فإنك بحمد الله مطبق لما كلفته ، قادر عليه " ، فإذا خالفك ولم يعمل بمشورتك عناداً أو لحاجاً تهدده فتقول : " أنا أعلم أنك لا تشاء أن تفعل ما أقول لك إلا أن أشاء أنا أن تفعله " ، ولست تريد في قولك هذا أن تسلب ابنك الاختيار والإرادة بالمرة ، وإنما كل ما تريده تهديده من طرف خفي بأن في طاعتك أن تكرهه على ما أردت منه بواسطة الضرب الموجه ، واللكم المتتابع مثلاً : غير أنك ترباً بنفسك ، وبابنك المحبوب أن تفقا معا هذا الموقف ، متربصاً به الرجوع عن غيه بزاجر من نفسه .

ومن عادة القرآن أن يأتي عقب التهديد بكلمات الترفيق والترغيب ، وهذا ما كان في الآية التي نفسرها ، فإنها عقيبت بقوله تعالى : (هو) أى الله (أهل التقوى) أى أهل لأن يتقى ويحذر عقابه ، فلماذا لا تتقونه أيها القوم ؟ (وأهل المنفرة) أى وأهل لأن ينفر لمن اتقاه منكم وأصلح عمله ، فلماذا لا تصلحون أعمالكم ، وتتركون إعراضكم ، وتتوبون إلى ربكم ؟

هذا ما وجدناه الأتقن والأحكم في تفسير آيات الإضلال . ونسأل الله ألا يجعل علينا تبعة فيما قلنا أو نقلنا : ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا .